لا تسمعُ إلا همسا

عدد شهر سبتمبر، 2022.

حَملَ شهر سبتمبر جُملةً من المواضيع المثيرة والمختلفة، من الدين والدعوة إلى الفكر والسياسة. هذه تجميعةٌ فيها كل ما نُشر من مقالات وتقارير، وما شاع من تصاميم واقتباسات خلال شهر سبتمبر، 2022، عنوانها : «لَا تسمعُ إلا همسا»، لأن الموضوع الرئيسي لهذا العدد كان التضييق على المحتوى الإسلامي ومحاولات تكميم الأفواه والصد عن الحق. لقد جُمعت، صُنِّفت وصُمِّمت بحب من فريق يقظة، نرجوا أن تنال إعجابكم!

أ. محمد رفيق كودري،
المدير والمؤسس

أَلاَ كُلُّ شَيءٍ ماخَلا اللهَ باطِلُ
وَكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ

فهرس المقالات

-01- «هكذا تخنق مواقع التواصل المحتوى الإسلامي»، بقلم دانيال حاقيقاتجو، قام بترجمته الأستاذ محمد رفيق كودري

-02- «إضاءاتٌ منهجية»، بقلم الدكتورة ليلى حمدان

-03- «ونستون تشرشل: الإمبريالي المتوحش»، بقلم أليكس سكوبيك، قام بترجمته الأستاذ محمد رفيق كودري

-04- «ما يجب على المسلمين معرفته عن العائلة الملكية البريطانية»، تقرير من إعداد مسلم سكبتيك، قامت بترجمته الأستاذة لبنى فاروق

-05- «اليمن .. جزء لا يتجزأ من أمة محمد ﷺ»، تقرير بقلم الدكتورة ليلى حمدان

-06- «من معاني سورة الضحى»، بقلم مصعب حُسين منصور

-07- «فوائدٌ وكنوز من الأخلاق والسير في مداواة النفوس»، مقال بقلم الأستاذة ليلى حجّار

-08- «ما وراء المركزية الأوروبية»، مقال بقلم إنغريد هارفولد كفانغرافن، قام بترجمته الأستاذ محمد رفيق كودري

-01- هكذا تخنق مواقع التواصل المحتوى الإسلامي

دانيال حاقيقاتجو
ترجمة: أ. محمد رفيق كودري

على المرء أن يكون ساذجًا للغاية كي لا يدرك أن شركات وسائل التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك لديها مصلحة راسخةٌ في الحد من كمية المواد "غير الصائبة سياسيًّا" التي يتم مشاركتها عبر نظامهم. لأن المحتوى غير الصائب سياسيًّا يضع مليارات الدولارات التي يمكن لهذه الشركات تحصيلها من المُعلِنين على المحك.

هذا أمرٌ يفهمه المسلمون جيّدًا، لأن العديد من التعاليم الإسلامية تُعتبر مسيئة، ومنبوذة، فهي في النهاية "غير صائبة سياسيًّا"، وفقًا للثقافة الغربية المهيمنة، والمتدهورة، التي نجد أنفسنا فيها.

إن السؤال البسيط هو: هل يستطيع المسلم أن يُبشر بالإسلام الأرثوذوكسيّ على وسائل التواصل الاجتماعي؟

فنظرًا للمخاطر الكبيرة، ومليارات الدولارات على المحك، تكهّن الكثيرون بأن شركات وسائل التواصل الاجتماعي تتخذ إجراءات سرية لمعاقبة وحظر وخنق المحتوى والصفحات التي لا تستوفي "معايير المجتمع" التعسفية مثل فيسبوك وتويتر ويوتيوب. ويبدو أن هناك أدلة قويّة على ذلك.

مشروع فيريتاس

حصل مشروع فيريتاس على وثائق ومواد نشرها موظفٌ نافذٌ سابقٌ في فيسبوك، تشرح كيف يخططَ مهندو الموقع ويُباشرون في ضبط الخطاب السياسي. تُظهر لقطات الشاشة من محطة عمل داخل فيسبوك الإجراءات الفنية المتخذة ضد الشخصيات السياسية، فضلًا عن "الاستراتيجية الحالية" المتخذة لمكافحة الخطاب السياسيّ".

وقد وُجد في المستندات عرضٌ تقديمي من تأليف المهندس سايجي ياماموتو، وإدواردو أرينو دي لا روبيا، بعنوان: "ضبط وتنسيق الـ Trolls على الفيسبوك". ياماموتو هو مدير علوم البيانات في الشركة، ودي لا روبيا هو كبير علماء البيانات فيسبوك. وقد بدا أن العرض التقديمي يصف الإجراءات الحالية، بالإضافة إلى الإجراءات المستقبلية المحتملة التي يمكن أن يتخذها فيسبوك لمكافحة "السلوك التعسفي" المزعوم على المنصة.

كما قام ياماموتو، المسؤول عن "استراتيجية التقليل من التدفق الإخباري"، بتأليف منشورٍ قال فيه إنه يجـ ـبُ على Facebook معالجة "... قدر كبير من المحتوى القريب من محيط خطاب الكراهية".

هذا أمرٌ يفهمه المسلمون جيّدًا، لأن العديد من التعاليم الإسلامية تُعتبر مسيئة، ومنبوذة، فهي في النهاية "غير صائبة سياسيًّا"، وفقًا للثقافة الغربية المهيمنة، والمتدهورة، التي نجد أنفسنا فيها.

قال أحد النافذين في الشركة أن المقصود بـ "محيط خطاب الكراهية" يعني "ما لا يندرج في الواقع تحت مظلة "خطاب الكراهية" ولكنه قد يسيء إلى شخص ما، أي ما قد يُنظر إليه على أنه خطاب كراهية، ولكن لا يمكن أن يُدان في المحاكم".

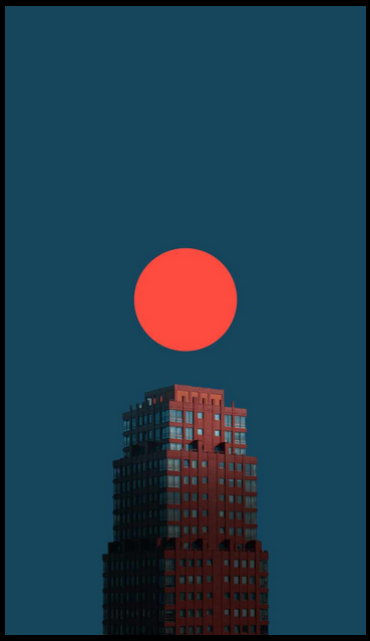

يعتقد بعض المطلعين على الداخل أن خطط ياماموتو تبدو سياسية بطبيعتها، وليست للرد على السلوكيات المسيئة، أو "لحفظ أمان الجميع داخل المجتمع"، "إنه من الواضح أنها مصممة لثقافة الميم اليمينية التي أصبحت سائدة للغاية في السنوات الأخيرة القليلة الماضية. وبعض الكلمات التي ظهرت في المخطط، كانت كلمات مثل SJW وMSM.. إن نيويورك تايمز لا تتحدث بالسوء عن الرجال الذين يمارسون الجنس مع الرجال، المنصات الإعلامية المحافظة هي من تستخدم هذه اللغة".

يقول العرض التقديمي الذي قدمه ياماموتو ودي لا روبيا أن "حسابات الـ Trolls" يمكن أن تتعرض للحد من تدفق الأنترنت، أو أن تكون عُرضةً لمواطن الخلل الإجبارية، مثل "تسجيل الخروج التلقائي" المتكرر، وعدم إمكانية تحميل التعليقات".

حسنا، نعلم الآن أن هذه ليست نظرية مؤامرة لا أساس لها، بل سيكون من المفاجئ إذا لم يكن فيسبوك يتخذ إجراءات كهذه.

منذ فوز ترامب المفاجئ في انتخابات عام 2016، كان الإجماع على أن وسائل التواصل الاجتماعي لعبت دورًا مهمًا في التأثير على نتيجة الانتخابات. كما قال البعض، لقد هبط ترامب في البيت الأبيض على موجة من الميمات و "الأخبار المزيفة" والروبوتات الروسية. فمنعُ ترامب إذن من ولاية ثانية، يعني قطع أو إعاقة سبيل النفوذ الهائل هذا.

حتى أن مارك زوكربيرج مؤسس فيسبوك اعترف العام الماضي – بعد أن أنكر ذلك في البداية – بأن فيسبوك لعب دورًا "مؤسفًا" في السماح لمعلومات مضللة بالتأثير على نتائج الانتخاباتً: "بعد الانتخابات، أدليت بتعليق مفادُه أن فكرة كون المعلومات المزيفةً قد أثرت على نتيجة الانتخابات هي فكرة مجنونة، إنني نادمٌ الآن على قول ذلك".

حسنًا، من المؤكد إذن، أن منصات التواصل الاجتماعي لا يمكن أن تسمح لذات الخطأ أن يُرتكب مرة أخرى.

لكن، سؤال المليون دولار هو، ما هو "التضليل"؟ ما هو "الكلام الذي يحض على الكراهية"؟ ما هي "الأخبار الكاذبة"؟ ومن الذي يقرر الإجابات على هذه الأسئلة؟ هل هم الليبراليون، المديرون التنفيذيون في وادي السيليكون؟

عندما كنت طالبًا جامعيًا في جامعة هارفارد، التقيت وتفاعلت مع العديد من الطلاب الذين أصبحوا مديرين تنفيذيين مؤثرين في فيسبوك وفي غيره من المنصات العملاقة. على الرغم من مواهبهم ، فإنني، وبكل تأكيد، لا يمكن أن أرغب في السماح بأن تكون لهم صلاحية اتخاذ هذه القرارات، والإجابة عن هذه الأسئلة. لأنهم، من ناحية، لم يكونوا في الغالب أشخاصًا ذوي أخلاق في الغالب، حتى وفقًا للمعايير الليبراليةً. ومن ناحية أخرى، إن فهمهم للأخلاق على المستوى النظري يميل إلى العدمية. كثيرون منهم يتخذون منهجًا نسبيًا للصواب والخطأ ويعتبرون الدين هوية ثقافية لا غير، يجب احترامها "لأسباب الاختلاف والتنوع" ولكنها لا تقدم أي شيء آخر.

عكست مواقفهم خلفياتهم الاجتماعية والاقتصادية وكذلك ما كانوا يحصلون عليه من دروسهم في جامعة هارفارد. أساتذة جامعة هارفارد، بعد كل شيء، ليسوا معروفين باحترامهم للحساسيات الدينية، ناهيك عن المحافظة الأخلاقية.

يقول العرض التقديمي الذي قدمه ياماموتو ودي لا روبيا أن "حسابات الـ Trolls" يمكن أن تتعرض للحد من تدفق الأنترنت، أو أن تكون عُرضةً لمواطن الخلل الإجبارية، مثل "تسجيل الخروج التلقائي" المتكرر، وعدم إمكانية تحميل التعليقات".

القس جوميز، الوزير المثلي الذي أشرف على الشعائر الدينية في جامعة هارفارد لعقود. مات منذ فترة.

فكيف ينظر إذن، قومٌ كهؤلاء، إلى الإسلام؟

لست بحاجة إلى التكهن، لأنني رأيت ردود أفعالهم عندما تحدثت معهم شخصيًا. لم ينظروا فقط إلى المبادئ الإسلامية التقليدية على أنها رجعية وبغيضة، بل اعتبروها تمثل بالضبط كل ما هو خطأٌ في هذا العالم.

الشذوذ الجنسي، الجنس خارج الزواج، التعددية الدينية، القضاء على أدوار الجنسين، الأخلاق التقدمية. فيما يتعلق بهذه القضايا وأكثر، يعارض الإسلام بشكل مباشر الحساسيات الأخلاقية للنخبة الليبرالية،، التي تضع أصابعها على موانئ هذه المنصات. ولسوء الحظ، أصبحت هذه المنصات هي الطرق الأساسية التي يحصل بها معظم الأشخاص عبر الإنترنت على معلوماتهم.

لكن هذه الشركات لن تعترف بفرض رقابة على الإسلام ذاته، لأنهم يصفون عملهم بأنه مواجهةٌ "للتطرف"، بزعمهم! المسلمون "المتطرفون" فقط هم من يقولون إن ممارسة اللواط أمرٌ مكروه. المسلمون "المتعصبون" فقط هم من يعتقدون أن الرجل ليس كالأنثى، وأن للرجال للنساء أدوارٌ مختلفة.

المسلمون الذين سوف يخالفون الإسلام ويتبنون العقيدة الليبرالية لديهم الضوء الأخضر. المسلمون الراغبون في تجنب هذه المواضيع تمامًا والدعوة إلى "الإسلام اللطيف" لديهم الضوء الأخضر. إنهم لا يهددون الحساسيات الليبرالية، وبالتالي فهم ليسوا "مسيئين" كما هو حال هؤلاء المسلمين المتطرفين، لذا فإن "دعوتهم" هي كوشير 100٪. في الواقع، مسلمو الكوشير هؤلاء هم دعامة مفيدة لعمالقة التكنولوجيا هؤلاء، فبِوجودهم يمكن لهذه الشركات أن تتبجح دومًا: "انظروا! إننا نقدر التنوع والاختلاف!"

لقد كانت جوجل هي الأكثر وضوحًا في "حربها" ضد "التطرف الإسلامي". منذ عام 2016، كانوا منفتحين جدا حول كيفية تلاعبهم بنتائج البحث لدفن المحتوى "المتطرف". حتى أن خوارزمياتهم تمتد إلى يوتيوب.

"في معركتها المستمرة ضد المحتوى الإرهابي، أعلنت شركة يوتيوب عن طرح ميزة بحث جديدة تعتمد على تقنية إعادة التوجيه (Redirect Method) التي صممتها حاضنة حاضنة للتكنولوجيا Jigsaw.

وفقًا للإعلان، فإن يوتيوب سوف يعرض الآن قائمة تشغيل لمقاطع فيديو تهدف إلى دحض محتوى "تجنيد المتطرفين العنيفين" عندما يبحث الأشخاص عن كلمات رئيسية معينة.

الشذوذ الجنسي، الجنس خارج الزواج، التعددية الدينية، القضاء على أدوار الجنسين، الأخلاق التقدمية. فيما يتعلق بهذه القضايا وأكثر، يعارض الإسلام بشكل مباشر الحساسيات الأخلاقية للنخبة الليبرالية،، التي تضع أصابعها على موانئ هذه المنصات. ولسوء الحظ، أصبحت هذه المنصات هي الطرق الأساسية التي يحصل بها معظم الأشخاص عبر الإنترنت على معلوماتهم.

لكن هذه الشركات لن تعترف بفرض رقابة على الإسلام ذاته، لأنهم يصفون عملهم بأنه مواجهةٌ "للتطرف"، بزعمهم! المسلمون "المتطرفون" فقط هم من يقولون إن ممارسة اللواط أمرٌ مكروه. المسلمون "المتعصبون" فقط هم من يعتقدون أن الرجل ليس كالأنثى، وأن للرجال للنساء أدوارٌ مختلفة.

لم يتضمن الإعلان تفاصيل حول ماهية "الكلمات الرئيسية المعينة" هذه، لكن موقع Jigsaw الذي يغطي تقنية إعادة التوجيه الخاصة باليوتيوب أدرج البيان التالي الذي يشرح كيفية عمله مع Moonshot CVE (مبادرة تستخدم البيانات لمواجهة رسائل التطرف العنيف) لتحديد الكلمات الرئيسية ذات الصلة.

بالنسبة للحملة باللغة الإنجليزية، أنشأت Moonshot CVE 30 حملة إعلانية تضم 95 إعلانًا فريدًا وأكثر من 1000 كلمة رئيسية. ركز توليد الكلمات الرئيسية على المصطلحات التي توحي بمشاعر إيجابية تجاه داعش."

الأمر الذي لا معنى له هو أنه ما دامت خوارزمية اليوتيوب قادرة على تحديد مقاطع الفيديو الخاصة بتنظيم داعش، والتي تشجع على الإرهاب، فيجب أن يكون من السهل عليها حظر الحسابات المرتبطة بمقاطع الفيديو هذه. فلماذا تتكبد عناء إعادة توجيه المستخدمين؟

إن الرؤية الأكثر رجاحة هي أن هذه الخوارزميات تلقي بشبكة هائلة، فتلتقط أي شيء وكل شيء حتى ما يتجاوز ما تعتبره البروتوكولات الحكومية "تطرُّفًا". ويمكن استخلاص هذا من حقيقة أن الخوارزمية تراقب أكثر من 1000 مصطلح. كيف يمكن أن يوجَد 1000 مُصطلح لمدح داعش، أو يوحي على الأقل بـ "مشاعر إيجابية" تجاه داعش؟ ما هي هذه المصطلحات؟ وكيف نحدد "المشاعر الإيجابية"؟ هل إذا قام أحدهم بنشر مقطع فيديو يُبيّن فيه أهمية "الخلافة الإسلامية"، والخلافة مطلبٌ شرعيّ، سوف تعتبر خوارزمية اليوتيوب أن هذا الفيديو يوحي بـ "مشاعر إيجابية" تجاه داعش؟ وماذا لو نشر أحدهم فيديو عن "حكمة الشريعة الإسلامية"، هل سَتصطاده الشبكة أيضًا؟

من السهل بعد معرفة هذا، إدراك حجم "الخنق" و"التحييد" الذي يتعرض له المحتوى الإسلامي.

ومع ذلك، لا يجب على مسلميّ الكوشير أن يقلقوا، حسنا، على الأقل طالما أن عمالقة التكنولوجيا لم يوسعوا بعد تعريفاتهم للكراهية والتطرف. ولكن عندما تتغير المعايير، على مسلمي الكوشير أن يتأقلموا مع ذلك، وأن يُقلِّصوا نطاق دعوتـ ـم، إن أرادوا المحافظة على مقام "الكوشير" السامي الذي يتمتعون به اليوم.

إذن، مالذي يمكن فعله عمليًّا؟

لا شيء غير الدعاء. طالما أن المسلمين الأرثوذكس ليسوا أقوياء بما يكفي للتأثير على هذه الشركات أو لتغيير الوعي العام، فلا يوجد شيء يمكن القيام به بشكل مباشر. ولكن آخر شيء يجب أن يفكر المسلمون بفعله هو تقديم حجج "حرية التعبير"، لأن حرية التعبير ليست من قيم الإسلام، بل هي مفهوم هشّ وغير متماسك.

وإلى جانب الدعاء الصادق بالفلاح في هذه الدنيا والآخرة، يجب على المسلمين العمل على إنشاء منصّاتهم الخاصة للتواصل ونشر الأفكار على نطاق واسع. هذه مهمة صعبة، لكن الخطوة الأولى في تجاه تنفيذها إلى أن يدرك المسلمون أن أيامهم على منصات التواصل معدودة، لأنهم إذا لم يستمروا في التنازل عن قِيَمهم الإسلامية شيئًا فشيئًا، ودرجة بدرجة، حتى الذوبان في العقائد النسوية والليبرالية، فإن هذه المنصات لن تتسامح مع وجودهم.

وعلينا أن نتذكر دائما أن رسالة الله لا تحتاج إلي أي منا ولا أي منصة. إن الحقيقة لا يمكن قمعُها أبدًا، والحمد لله.

اقتباس

«فالأديب منّا مُصوِّرٌ بقلم غيره، والفيلسوف منّا مفكّرٌ بعقل سواه، والمؤرّخ منّا ناقدٌ للأحداث بنظرٍ غريبٍ عن تاريخه، والفنّان منّا نابضٌ قلبه بنبضٍ أجنبيٍّ عن تراث فنّه. وأمّا الثرثرة والاستخفاف، فحدّث ولا حرج، فالصبيّ الكبير يهزأ مزهوا بالخليل وسيبويه وفلان وفلان، ولا بعث أحدهم من مرقده، ثم نظر إليه نظرة دون أن يتكلّم، لألجمه العرق، ولصار مضغة لا تتلجلج بين فكّيه، من الهيبة وحده، علمهالذي يستخف به ويهزأ.»

محمود محمد شاكر، مُتحدِّثًا عن يكون زُمرةٍ من أهل الفن والأدب في زمانه للمدِّ التغريبيّ..

-02- إضاءاتٌ مَنهجِيَّة

د. ليلى حمدان

إن أكثر ما ينتشر في مواقع التواصل الاجتماعي "التدليس"، فقد دخل الساحة الإخبارية والعلمية والدعوية على حد سواء. وهو أخطر من الكذب، لأن المدلّس يركز على ما يخدم هواه ويهمّش ما يزعجه، وأكثر من يستخدمه، المميعون بإفراط، والمتشددون بغلو. كلاهما يغذي دعوة الآخر. والمستقيم ينشد الحق أينما وجد ولا يقبل المساومة عليه.

أكثر ما يخذل قوة الحق ويحرم الناس بركاته، أن يُستبدل ميزان الحق بميزان الخلاف، فالأول يخضع الجميع للحق وإن كان على حساب النفس ويصلح، والثاني يخضع الجميع للصف، بغض النظر عن الحق، مقياسه (من معي ومن ضدي). وإن كان يلبس لبوس الحق إلا أنه يخضع الحق لهواه بالنصرة العمياء وعين الرضـى عن كل عيب كليلة!

ما دام هناك عبث في تفسير النصوص الشرعية بعملية إعادة مراجعة "التراث" ليوائم العصر! وما دامت الدعوات تستجيب للضغوطات الدولية لإبراز المسلمين كدعاةٍ للسّلام ومسالمين فيتم التضحية بجزء عظيمٍ من الدين في كل القضايا لإرضاء الغرب، سيستمر الغلو والتشدد في الارتفاع! وسوف نفقد الاستقامة.

لكل فعل رد فعل، ولكل انحراف ثمن، وقد نبهنا الله جل جلاله مبكرا جدا في القرآن لهذه الأزمة التي نعيش في سورة هود، فحذرنا من الركون وحذرنا من الطغيان، وما لم نلتزم بالاستقامة كما أمر الله تعالى سيستمر الانحراف في الأمة والتفرق والخلاف. من هنا تظهر أهمية إعادة المرجعية للقرآن والسنة والإصلاح.

قال ابن القيم رحمه الله: "ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو.

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين، وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل الثابت على الصراط الذي كان عليه صلى الله عليه وسلم". (1)

كلما اشتد التفريط والتمييع للدين، قابَله تلقائيا إفراط وغلو كرد فعل على ما يجري، وهذا يعني أن الاستقامة هي السبيل الوحيد لإصلاح الوضع ولن يتحقق ذلك بدون إخضاع الجميع لمرجعية القرآن والسنة بفهم الصحابة رضي الله عنهم والسلف، ليخف الخلاف وتتقلص المسافات وتجتمع الصفوف على الحق.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (112) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (113)) (سورة هود).

إن أكثر ما يفسد عملية الإصلاح الارتهان لساحات الخلاف ومحاولة استرضاء الأطراف على حساب الحق، ولا يمكن التخلص من هذه الأزمة إلا بإعادة الاعتبار للحجة والبيّنة من الكتاب والسنة، وحفظ مساحة للخلاف التي يسمح بها الشرع على ألا تصبح وسيلة للتملص من الحق. وكلما توحدت المرجعية خف الاحتقان.

لا بد أن ندرك أن ما تعيشه الساحة ليس إلا تداعيات ما تتعرض له الأمة من غزو غربي يستهدف أصول الإسلام وعوامل القوة والانبعاث، وكل دعوة منحرفة سنجد لها اتصالا وثيقا بهذا الواقع، تدفعه مؤسسات وتمويل وأجندات الهدف منها تحييد الإسلام من حياة المسلمين أو تحويله لنسخة مدجّنة بلا أي قوة.

وبدل الانشغال في صياغة الجيل على الإسلام، أصبح الدعاة يحاربون أشكالا لم يعهدوها من الدعوات الشاذة التي تنتشر بين المسلمين وتشتت تركيزهم عن رسالتهم الأهم، في إقامة بنيان الإسلام، كالنسوية والجندر والدين الإبراهيمي الجديد. وكلها تتصل ببعضها البعض، الهدف منها إخراج نسخة محرفة من الدين.

ولا بد أن نشدد على أن كل ما نعيشه اليوم من اختلاف كبير وأمور لم تعهدها الأمة، قد نبأنا به النبي صلى الله عليه وسلم مبكرا، مما يتطلب عودة لأحاديث آخر الزمن والتمسك بوصايا النبي صلى الله عليه وسلم بشدة، وتداولها للتذكرة، فإن الفتن ستشتد أكثر والإعداد ضعيف والقلوب هشة، ولن يثبت إلا موفق. والقرآن والسنة منجاة.

إن أهم نصيحة للمسلم اليوم، التمسك بالقرآن والسنة والنأي بنفسه عن التعصب الأعمى والظلم، يعطي الحق المطلق للنبي صلى الله عليه وسلم والجيل المتفرد، أما غيرهم فيوزن في ميزان الحق لا الخلاف، ويسأل الله الهداية والثبات، فالعقل والبصيرة نعمة وفضل. ومن أراد الخير لهذه الأمة ليستقم كما أمر الله.

وإن كان من بشرى أبشر بها المسلمين في الختام فهي أن المستقبل لهذا الدين، والنصر له بوعد من الله حق، ولكنه نصر لمن استقام على منهج نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا التخصيص في تبيان منهج النبي وأهميته في آخر الزمان لاستحقاق النصر، مهم جدا لمن رام سهما في تحقيق وعد الله الحق. فطوبى لأهل السنة.

وأخيرا، لا أشك في صدق محبة المسلمين لدينهم ولا غيرتهم على حرماته، لكن مشكلتنا في موافقة اتباعهم لما يحب الله ويرضى، في درجة استقامتهم على الكتاب والسنة، مما يتطلب اجتهادا في طلب العلم والعمل به، والتواصي بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى وسؤال الله من فضله العظيم، فهي قصة مجاهدة!

في الحديث (وسترون من بعدي اختلافا شديداً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمور المحدثات؛ فإن كل بدعة ضلالة) (2). فعليكم بالعتيق.

اللهم ألف بين قلوب عبادك ووحد صفوفهم على التقوى وأصلح قلوبهم على محبتك وطاعتك، واكفهم شرور أنفسهم والأعداء. اللهم آمين.

هوامش

(1) إغاثة اللهفان 116/1

(2) حديث صحيح، أخرجه أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (42) واللفظ له، وأحمد (17144)

-03-

ونستون تشرشل: الإمبرياليُّ المتوحش

أليكس سكوبيك
ترجمة: أ. محمد رفيق كودري

يركز كتاب طارق علي الجديد على الجرائم التي ارتكبها ونستون تشرشل للإمبراطورية، مما يقلب الرواية الموروثة عن هذا الزعيم البريطاني.

في بريطانيا اليوم، تبدو شخصية ونستون تشرشل مؤلهة. يزين وجهه ورقة الـ 5 جنيهات إسترلينية، حيث يحدق بحزم في المارّة، هو رئيس الوزراء الوحيد الذي تم تكريمه؛ هو موضوع دائم لأفلام بي بي سي الوثائقية والسير الذاتية ذات الميزانيات المرتفعة، ولديه سلسلة خاصة به من الدراما الإذاعية دكتور هو، حيث ينقذ العالم بشكل روتيني من الغزو الفضائي، (نعم ، حقًا). عند التيار الثقافي السائد، هزم تشرشل بمفرده ألمانيا النازية ببعض الخطب المثيرة، وظل منارة للثبات البريطاني و"الروح الخاطفة" طوال حياته العامة. إنها صورة مقنعة لا يمكن إنكارها، لكن في الكتاب الجديد "ونستون تشرشل: زمانه، جرائمه، يقول طارق علي إن كل هذا باطلٌ قد بُنِيَ بعناية.

أحد المقدمات المركزية لطارق علي هي أن "عبادة تشرشل" قد أصبحت راسخة في المجتمع البريطاني، مما أدى إلى تضخيم الذاكرة المتعلقة بتشرشل، بما يتجاوز المنطق، وبما يغلق كل باب للنّقد المستحق. لاختبار هذا التأكيد، لا يمكن فعل شيء أفضل من فحص كتابات بوريس جونسون – رئيس وزراء بريطانيا السابق، وفي كتابه الذي صدر عام 2014، بعنوان "The Churchill Factor: How One Man Made History"، يذهب بصراحة إلى أطوالٍ مُحرجةٍ لتلميع صورة سلفه: "في جميع أنحاء العالم – من أوروبا إلى روسيا إلى إفريقيا إلى الشرق الأوسط – نرى آثارًا لفكر تشرشل. إن تشرشل مهم اليوم لأنه أنقذ حضارتنا. والنقطة المهمة هي أنه الوحيد الذي كان بإمكانه فعل ذلك. إنه الرد البشري المدوي على جميع المؤرخين الماركسيين الذين يعتقدون أن التاريخ ما هو إلا قصة قوى اقتصادية هائلة تدافع بعضها."

يميل المرء إلى تذكير جونسون بأن تشرشل قد مات أيضًا، وبالتالي فإن هذا الإطراء لن ينفعه. ولكن على الرغم من كل هذا الإسراف، فإن وجهة نظر جونس هي الشائعة إلى حد ما في المملكة المتحدة، وفي المحيط الإنجليزي بشكل عام. مثل الآباء المؤسسين الأمريكيين، صعد تشرشل إلى مستوى التأليه، البطل الخالص من الشوائب، وبالكاد يُنظر إليه على أنه شخصية سياسية، ناهيك عن كونه حزبيًا. عندما قام المتظاهرون في عام 2020 برش عبارة "هو عنصري" – وهي عبارة صحيحة بشكل مباشر ، كما سنرى – تحت تمثال تشرشل في ساحة البرلمان، سكتت الصحافة الشعبية البريطانية، وخرجت حشود من المحتجين المناهضين إلى "الدفاع عن "التمثال، كما لو كان شخصًا حقيقيًا. هناك شعور بأن أي تعليق سلبي حول بطل الحرب العظمى، مهما كان معتدلاً، هو بعيدٌ عن الحق.

ولكن كما يشير علي، فإن مكانة تشرشل كرمز وطني محترم هو بدعةٌ حديثةٌ إلى حد ما. عندما كان في السلطة فعلاً، كان صبر الشعب البريطاني ضيق جدا على الرجل، وكان أولئك الذين ساروا تحت قيادته من بين أعلى الأصوات التي عبّرت عن رفضها له. في ذروة الحرب العالمية الثانية، أجرى جنود الجيش البريطاني المتمركزون في مصر سلسلة من النقاشات عُرفت باسم برلمان قوى القاهرة، وبلغت ذروتها في انتخابات صورية في فبراير عام 1944 – وعندما تم فرز أصواتهم، كان تشرشل في المرتبة الأخيرة. في وقت لاحق، عندما انتصر في الحرب، وجد تشرشل نفسه وسط صيحات الاستهجان من قبل الحشود في والتهامستو، الذين هتفوا "نريد العمل!" ما جعل رئيس الوزراء مرتبكًا بشكل متزايد.

أخيرًا، في عام 1945، تم التصويت ضده بشكل فعليّ، بعد أقل من شهرين من استسلام ألمانيا الذي كان ينبغي أن يكون إنجازه المتوّج. من الواضح أن معاصري تشرشل – على الرغم من إعجاب الكثيرين به بالتأكيد – لم يروه نموذجًا لا يمكن المساس به.

إذن، من أين ظهرت "عبادة تشرشل"؟ مثل العديد من الأفكار السيئة، فإن هذه الظاهرة لها جذورها مع مارجريت تاتشر. في فصوله الافتتاحية، اعتمد علي على تحليل أنتوني بارنيت، زميله السابق في New Left Review، الذي جادل في عام 1982 بأن حكومة تاتشر كانت تطبل لـ "تشرشل" من أجل تبرير حرب فوكلاند:

"كانت جميع الرموز الأساسية موجودة هناك: شعب يعيش في جزيرة، بحار قاسية، وهزيمة بريطانية، وديمقراطية أنجلو سكسونية يهددها ديكتاتور، وأخيراً موقف تشرشل الجوهري – كنا في الأسفل ولكننا لم نكن في الحضيض. نظر البرلمانيون من اليمين واليسار والوسط عبر ضباب الزمن إلى جزر فوكلاند وتخيلوا أنفسهم الرجل العجوز الكبير. لقد كانوا، بعد كل شيء، أحفاده السياسيين وكانوا هم أيضًا مقدرين لإعادة كلمة "العظمى" بمحاذاة اسم بريطانيا."

تحقيقا لهذه الغاية، فعل المحافظون البريطانيون كل ما في وسعهم لرسم أوجه تشابه بينهم وبين تشرشل: بين عشية وضحاها، أصبحت اجتماعاتهم تُسمى "مجلس حرب"، وتم اتهام أولئك الذين أرادوا رؤية تسوية دبلوماسية سلمية مع الأرجنتين بـ "الاسترضائيين". من جانبها، اعتادت تاتشر الإشارة إلى سلفها باسم "وينستون"، في محاولة منها لتشير إلى صداقة شخصية بينها وبينه لم تكن موجودة أصلا.

وبهذه الطريقة، تم بيع حملة فوكلاند بنجاح للجمهور البريطاني، وأصبحت "العقيدة التشرشلية" عقيدة سياسية راسخة للأمة.

ومع ذلك، فإن الافتراضات الأساسية وراء هذه الرواية مشكوك فيها إلى حد كبير، ولا شيء أكثر من فكرة أن تشرشل كان معارضًا قويًا للفاشية. قبل وقت طويل من وعده "بالقتال على الشواطئ"، أعرب تشرشل عن قدر مزعج من التعاطف مع حكومة إيطاليا الفاشية، واصفًا موسوليني بأنه "أعظم مُشرِّع بين الأحياء" في عام 1933، وأثنى على "شجاعته الرائعة وجرأته" في أواخر عام 1937 – بعد أكثر من عشر سنوات من مسيرة روما وحظر جميع أحزاب المعارضة. كان تشرشل ملكيًا طوال حياته، وكان مستاءً من نجاح الثورة الروسية، واعتقد أن الفاشية يمكن أن تكون بمثابة تصحيح ضروري – وإن كان مقيتًا – لـ "وباء" الانتفاضات العمالية. كما قال لموسوليني، "لو كنت إيطاليًا، فأنا متأكد من أنني كنت سأكون معك من كل قلبي من البداية إلى النهاية في كفاحك المنتصر ضد شهوات اللينينية ومشاعرها".

عندما ألقى تشرشل خطابه الشهير أمام مجلس العموم في مايو 1940، حيث حث البرلمان على رفض المفاوضات مع هتلر والقتال على الرغم من الوضع المزري في دونكيرك، لم يذكر أي نزاع أساسي مع الفاشية أو معاداة السامية. في لحظة الحقيقة، لم يكن هناك حديث عن "شهوات وحشية" أو "حقد حسود"، كما حدث عندما أشار إلى الاشتراكيين. بدلاً من ذلك، كان قلقه ببساطة هو أن "الألمان سيطلبون أسطولنا – وهذا ما يسمى "نزع السلاح"، وأنه "سوف نصبح دولة تابعة، على الرغم من أن الحكومة البريطانية التي ستكون دمية هتلر ستنشأ تحت قيادة موسلي أو بعض هؤلاء الأشخاص".

بعبارة أخرى، لم يكن يريد شن حرب ضد الفاشية حقًا – فقد حث، على سبيل المثال، على "الحياد" في الحرب الأهلية الإسبانية، قبل خمس سنوات فقط – ولم تكن حربًا أيديولوجية قوية على الإطلاق. لقد كانت حربه ضد هتلر مجرد حرب للحفاظ على مكانة بريطانيا كقوة عظمى ذات سيادة على المسرح العالمي. كان مفهوم نشوء إمبراطورية منافسة، وتفوقها على بريطانيا، هو أمر لا يطاق – وفي إطار منطق الإمبريالية هذا، تم اتخاذ جميع قرارات تشرشل الأكثر أهمية، سواء في زمن الحرب أو خارجها.

فيما يتعلق بالإمبريالية، إذن، فإن كتاب "ونستون تشرشل: زمانه، جرائمه" يلمع حقًا. وفقًا لتقدير علي المتحفظ، يوجد أكثر من ألف كتاب عن ونستون تشرشل متاحًا اليوم – ولكن في أغلب الأحيان، يتم تخصيص الغالبية العظمى من عدد الصفحات لدور تشرشل في الحرب العالمية الثانية، بينما يتم إيلاء اهتمام أقل بكثير لأفعاله قبل وبعد الحرب. للوهلة الأولى، قد يبدو هذا معقولاً بما فيه الكفاية – فالحرب العالمية الثانية، بعد كل شيء، كانت الأمر الأعظم في ذلك الزمن. لكن في ضوء آخر، لا تمثل الحرب سوى سبع سنوات من مسيرة تشرشل المهنية، والتي امتدت على الأقل خمسين عامًا وطالت أربع قارات. إن التركيز على ذلك حصريًا في تلك السنوات السبع يحمل دلالة غير مريحة، مما يشير إلى أن الصراع في أوروبا مهم ومثير للاهتمام بطبيعته، في حين أن إفريقيا والهند والشرق الأوسط أقل أهمية. (للإشارة، هذه هي نفس المركزية الأوروبية المتأصلة التي تمنحنا تغطية إعلامية على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع للحرب في أوكرانيا، ولا شيء من تلك التغطية والمتابعة المماثلة لحرب اليمن). الشيء المهم في كتاب علي، هو أنه مهتم بشكل أساسي بسنوات تشرشل في خدمة الإمبريالية البريطانية، ومهتمًا بشكلٍ ثانوي بدوره في الحرب العالمية الثانية، مما يؤدي إلى قلبِ التوازن المعتاد. إن هذا التحول في التركيز هو الذي يسمح لعلي بوضع تشرشل في سياق تاريخي عالمي أكثر اكتمالاً – والبدء في مهمة الكشف عن جرائمه الإمبريالية.

بالترتيب الزمني، على الأقل، فإن المكان المناسب للبدء هو الفصل الرابع لعلي، "البعد الأيرلندي". هنا، نتعلم أن تشرشل قضى جزءًا تكوينيًا من طفولته – من سن الثالثة إلى السابعة – في دبلن بعد أن تم تعيين والده، اللورد راندولف تشرشل، لورد ملازمًا لحكومة الاحتلال البريطاني. مثل معظم آباء الطبقة العليا من جيله، كان اللورد راندولف متغربًا عن ابنه في أحسن الأحوال، وبقي وينستون الشاب في رعاية ممرضة إنجليزية تدعى السيدة إيفرست لأسابيع في كل مرة. من هذه النشأة، أُلِّفَ تشرشل الإمبريالية إلى جانب حروف الأبجدية، حيث قيل له إن الإيرلنديين "شعب جحود" لرغبتهم في الاستقلال عن بريطانيا العظمى، وأن المتمردين الفينيين هم "أناس أشرار، ولم يكن هناك حد لما يريدون فعله إذا حازوا طريقتهم". بهذه الطريقة، لعب مقاتلو التحرر الوطني نفس الدور بالنسبة لتشرشل الذي يؤديه الرجل البعبع بالنسبة لمعظم الأطفال – إن هذه الحقيقة تشرح الكثير عن حياته اللاحقة.

وبعد البلوغ، كان موقف تشرشل تجاه أيرلندا واضحًا: كانت أيرلندا ملكية بريطانية، وأي تحرك نحو الاستقلال كان خيانة. شغل تشرشل منصب وزير الدولة للحرب عام 1919، وأشرف على نشر فرق الموت سيئة السمعة "بلاك وتان – Black and Tan" في أيرلندا، بهدف سحق الحركة الجمهورية مرة واحدة وإلى الأبد. كانت فرقة Black and Tans تتألف بشكل أساسي من جنود سابقين من الحرب العالمية الأولى، وسرعان ما أصبحوا معروفين كقوة احتلال لا تعرف الرحمة، ومستعدة للتعنيف العشوائي

وإطلاق النار على المدنيين الأيرلنديين. وفي أوامر من الكولونيل جيرالد سميث، يمكننا أن نرى اللهجة القاتلة للسياسة العسكرية البريطانية: "في حالة عدم الامتثال لأمر "رفع اليدين" على الفور، فعليكم بإطلاق النار فورًا، وبفعالية. إذا اقترب من الدورية رجلٌ يضع يده في جيبه، أو بدا مثيرًا للريبة، أطلقوا النار عليه فورًا. قد ترتكبون أخطاء من حين لآخر وقد يتم إطلاق النار على أشخاص أبرياء، لكن لا يمكن تجنب هذا، ولا بد لكم من قتل الأشخاص الصواب أحيانًا، فلا يمكن أن يكون الجميع أبرياء. كلما أطلقت النار أكثر كلما أعجبتُ بك أكثر، وأؤكد لكم أنه لن يقع أي شرطي في مشكلة لإطلاقه النار على أي رجلٍ مهما كان."

بسبب إصداره هذا الأمر، اغتيل سميث على يد الجيش الجمهوري الإيرلندي في صيف عام 1920 – لكن تشرشل كان القوة الدافعة وراءه، وقد انعكست موافقته الضمنية في كلماته. في ديسمبر، كانون الأول التالي، نفذت القوات البريطانية "عملية إحراق كورك"، وأشعلت أكثر من 300 منزل ومتجر انتقاما لهجمات الجيش الجمهوري الإيرلندي – وأطلقت النار على رجال الإطفاء عندما حاولوا المساعدة. في سرده، يرسم طارق علي خطاً واضحاً بين تدخل تشرشل الإمبراطوري، والعنف الإضافي للاضطرابات التي أرهقت أيرلندا لعقود تالية، حيث زرع أحدهما بذرة الآخر.

يكرر هذا النمط نفسه في الهند، حيث كان خطاب تشرشل المناهض للاستقلال أكثر حدة. حتى أن الفكرة القائلة بأن الهنود يمكن أن يحكموا أنفسهم بدون إشراف بريطاني كانت، حتى في أكثر المصطلحات اللاعنفية، لعنة على كبريائه الإمبراطوري. عندما أعلن غاندي عن إضراب "اتركوا الهند" في عام 1942، وأوقف التعاون الهندي مع المجهود الحربي البريطاني لانتزاع ضمان للحرية، سارع تشرشل إلى الزج بكامل قيادة المؤتمر الوطني الهندي في السجن. مرة أخرى، يربط علي بين قسوة تشرشل البالغ وتجاربه عندما كان شابًا. تم تكليف تشرشل عندما كان جنديا على الحدود الهندية الأفغانية للقيام بدوريات – وهي واحدة من العديد من الخطوط التعسفية البحتة التي رسمها دبلوماسيون بريطانيون على الخريطة – في عام 1897، وجد تشرشل المقاتلين البشتون الذين تجرأوا على مقاومة الإمبراطورية "من بين أكثر المخلوقات بؤسًا ووحشية على وجه الأرض"، وكتب مداخلات طويلة، متذمرة في مذكراته، يشكو من أنه" بما يتناسب مع تطهير هذه الوديان من الحشرات الضارة التي تصيبها، فإن سعادة البشرية ستزداد". عند الغالبية العظمى من الناس في هذا الزمن، فإن مشاعر الإبادة الجماعية هذه مرعبة – لكنها شكلت جزءًا أساسيًا من فكر تشرشل، ولهذا لم يكن ينبغي أن يفاجأ أحد عندما أشرف تشرشل بالفعل على إبادة جماعية في الهند في وقت لاحق.

مجاعة البنغال، كما يشير طارق علي، هي موضوع حساس للمؤرخين الغربيين. ولم تظهر في كتاب تشرشل، تاريخ الحرب العالمية الثانية المؤلف من ستة مجلدات، والذي أصبح من أكثر الكتب مبيعًا على مستوى العالم، ولا في تاريخ أكسفورد للقرن العشرين؛ بالتأكيد لم أجد أي ذكر لها في كتاب جونسون عن تشرشل.

ومع ذلك، يكشف علي أن تصرفات تشرشل وتقاعسه عن العمل أثناء الحرب أدت بشكل مباشر إلى مقتل ما لا يقل عن 3 ملايين هندي – وهو عدد لا يُغتفر إذا قام به أي شخص آخر، في أي مكان آخر. كما فعل الراحل كريستوفر هيتشنز في كتابه، الذي تم التقليل من شأنه، محاكمة هنري كيسنجر، عين طارق علي نفسه المدعي العام لتشرشل، وقدم الأدلة على تواطؤه في المجاعة بترتيب دقيق، مما يترك مجالًا ضئيلًا للشك. والنتيجة هي لائحة اتهام تاريخية مقنعة، لدرجة أنه حتى لو كانت بقية الفصول مجرد حشو، فإنها تبرر وجود الكتاب في حد ذاته.

إذن ما الذي حدث بالضبط؟ في عام 1942، كان عدد سكان منطقة البنغال 60 مليون نسمة، اعتمد معظمهم على الأرز والأسماك في غذائهم اليومي. باعتبارها الجزء الأول من الهند الذي استعمره البريطانيون في القرن الثامن عشر، فقد كانت تحت سيطرة إمبراطورية صارمة بشكل خاص، و "كانت كلمة الحاكم البريطاني هي القانون" في جميع الأمور، بما في ذلك الزراعة. كانت المنطقة أيضًا عرضة للأعاصير الشديدة وظواهر الطقس الأخرى، وتلقي معظم الحسابات الغربية باللوم على هذه الظواهر بالتسبب في المجاعة. ولكن، وكما يشير علي، فإن محاصيل عام 1943 كانت أقل بنسبة 5٪ فقط من محاصيل عام 1942، على الرغم من تسونامي الذي غمر معظم دلتا نهر الغانج. يكتب طارق علي: "لم يكن نقص الطعام هو الذي أودى بحياة الملايين، ولكن الأمر كان ببساطة هو أن الطعام كان يتعذر الوصول إليه بناءً على أوامر من أعلى مستويات البيروقراطية الإمبراطورية في دلهي، الذين كانوا ينفذون تعليمات من لندن."

في إصدار هذه التعليمات، أعطى تشرشل أولوية صريحة لحياة الأوروبيين على حياة الهنـود، واستخرج آلاف الأطنان من الحبوب من البنغال لإطعام الجنود البريطانيين والمساعدة في مجاعة موازية كانت تحدث في اليونان.

وقد قال تشرشل بصراحة إن "تجويع البنغاليين الذين يعانون من سوء التغذية على أية حال أقل خطورة من المجاعة التي يتعرض لها اليونانيون الأقوياء" ، وهو تصريح لا يمكن اعتباره أي شيء غير عنصرية قاتلة. (ضع في اعتبارك هنا الدلالات الثقافية: ارتبط اليونانيون بالكلاسيكيات المشهورة التي شكلت العمود الفقري لتعليم النخبة البريطانية، بينما كان الهنود لا يزالون يُنظر إليهم على أنهم "مخلوقات بائسة ووحشية" كما بدا في مذكرات تشرشل التي كتبها أيام الجيش). وعندما بدا أن الإمبراطورية اليابانية قد تستولي على البنغال، أضيف دافع آخر إلى حسابات تشرشل، فجرّد الريف من أي موارد يمكن أن تُوفّر كغذاء، لصد اهتمام اليابانيين بالمنطقة. وفقًا لأرقام طارق علي، تم الاستيلاء على 43000 قارب صيد أو تدميره، وتم نقل 123000 طن أخرى من الأرز، تاركين القليل أو لا شيء للبنغاليين للعيش. شُرِّد الناس عن منازلهم، مما أدى إلى اكتظاظ المستشفيات أثناء انتقالهم بشكل جماعي؛ لقد باعوا كل ما يملكونه مقابل بضعة أوعية من الطعام، وأصبحوا فريسة لمقرضي الأموال المبتزرين، ولجأوا إلى السرقة وحتى أكل لحوم البشر من أجل البقاء. من المستحيل تخيل الجحيم الذي أطلقته السياسة البريطانية في الهند الشرقية، لكن رواية علي تقرب القارئ قدر الإمكان – وتضع جبال الجثث مباشرة على عتبة باب تشرشل.

من الصعب تأكيد الأرقام الدقيقة، ولكن وفقًا للأرقام الأكثر تحفظًا، مات ما لا يقل عن 3 ملايين شخص في مجاعة البنغال. وفقًا للموثق الوثائقي الهندي ساتياجيت راي، الذي استشهد به علي على نطاق واسع، قد يكون الرقم الحقيقي

أقرب إلى 5 ملايين، مع وفاة العديد في قرى بعيدة لم يتم تسجيل وفاتهم حكوميًّا.

لماذا، إذن، لا يعتبر تشرشل وحشًا قاتلًا، مجرم حرب، مثله مثل ستالين، الذي تسبب في مجاعة مميتة مماثلة في أوكرانيا؟ كيف ننتقد رجلاً وننبذه، بينما نعتبر الآخر بطلًا، وكلاهما ارتكب الجُرم ذاته؟ للأسف، الإجابة ببساطة هي: العنصرية الإمبريالية. حتى اليوم، يعتبر العديد من المؤرخين – سواء بوعي أو بغير وعي – أن حياة الهنود أقل قيمة من تلك الموجودة في الدول الأقرب والأكثر بياضًا، وتعكس الحوافز المالية للأوساط الأكاديمية هذا التحيز، فالكتب والأفلام الوثائقية التي تتحدث تشرشل كالبطل المنمق تبيع أكثر من الروايات القاتمة عن المجاعات الجماعية التي سببها. ضد هذا الاتجاه السائد، يعد كتاب علي – جنبًا إلى جنب مع كتاب العلماء البنغاليين مثل جانام ومادهوسري موكرجي – تصحيحًا حيويًا، على الرغم من أنه لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يتعين القيام به.

يمكننا المضي في هذا السياق إلى الأبد، والتطرق إلى الفظائع في إيران والعراق والسودان وفلسطين، من بين أماكن أخرى. إن كتاب علي ليس شاملاً، ولكنه مجرد تلخيص لأهم اللحظات؛ إن القصة الكاملة للعنف الإمبراطوري لتشرشل سوف تستغرق العديد من المجلدات لترويها، وقد فُقد الكثير منها أو تم محوه عمدًا. إلى جانب الفصول المتعلقة بالهند، فإن أحد أقوى فصول الكتاب هو "جرائم الحرب في كينيا"، الذي يسلط الضوء على جزء تم قمعه جيدًا بشكل خاص من التاريخ الاستعماري البريطاني. بالاعتماد بشدة على البحث الذي أجرته الأستاذة بجامعة هارفارد كارولين إلكينز، التي كشف كتابها المُعنون "الغولاغ البريطاني" في عام 2005 لأول مرة عن العديد من الحوادث ذات الصلة، يروي علي كيف بنى البريطانيون نظامًا مُفصّلاً للفصل العنصري في كينيا، حيث لا يستطيع الكينيون الأصليون امتلاك أرض خارج "محميات معينة" "- التي كانت تحتل الأرض الأسوأ والأقل خصوبة. كما لم مُنع الكينيون من حق التصويت. من جانبه، كان تشرشل مؤيدًا متحمسًا لهذا النظام، ولاحظ في عام 1921 أنه "من السخف أن نذهب ونمنح المتوحشين العراة لكيكويو وكافيروندو حقوقًا انتخابية متساوية، على الرغم من أنهم بشر – إلا أنه لا يمكنك فعل ذلك". ومرة أخرى، فإن الطلب البسيط من جانب السكان الأصليين – ليس حتى طلبٌ لخروج الاحتلال البريطاني، ولكن فقط بالسماح بجزء من الحرية السياسية داخل نطاقهم – لم يلق سوى الازدراء الذي لا ينضب.

بعد عقود من هذه المعاملة، أطلق القوميون الكينيون انتفاضة ماو ماو في عام 1952، بعد أن عاد تشرشل أخيرًا إلى السلطة في إنجلترا. نظرًا لضعف تسليحهم مقارنة بالقوات البريطانية والمتعاونين معها، إلا أنه كان في إمكان المتمردين الكينيين تنفيذ سلسلة من غارات حرب العصابات الناجحة في جميع أنحاء البلاد، مما أسفر عن مقتل 32 مستعمرًا. رداً على ذلك، نفذت حكومة تشرشل حملة عسكرية غير متناسبة بشكل كبير، وسجنت أكثر من 80 ألف كيني كانوا يشتبه في تعاطفهم مع حركة الاستقلال – أو الذين تصادف أنهم اشتبهوا بشخص آخر، أو ببساطة كانوا في المكان الخطأ في الوقت الخطأ. تم جمع الرجال والنساء والأطفال على حد سواء في "معسكرات اعتقال" حيث كانت ظروف الطعام والنظافة فظيعة، وكان الضرب والتعذيب أمرًا روتينيًا. في مقابلة مع التايمز اللندنية، تروي أرملة أحد السجناء الانتهاكات التي تعرض لها زوجها على يد خاطفيه البريطانيين:

"تلقى الحراس الأفارقة تعليمات من الجنود البيض بجلده كل صباح ومساء حتى يعترف [...]

قال إنهم في بعض الأحيان كانوا يضغطون على خصيتيه بقضبان معدنية متوازية. قاموا أيضًا بثقب أظافره وأردافه بدبوس حاد، مع ربط يديه ورجليه وتوجيه رأسه لأسفل [...] كان هذا هو الوقت الذي أدركنا فيه أن البريطانيين ليسوا أصدقاء في الواقع، بل أعداء."

وحتى هذه القصة المروعة كانت ليتم نسيانها – لو لم يكن اسم الرجل المعذب حسين أونيانغو أوباما، ولم يكن حفيده رئيس الولايات المتحدة، لم يكن باراك أوباما في معزلٍ عن جرائم الحرب في كينيا، فقد أزال تمثالًا كبيرًا لتشرشل من المكتب البيضاوي، في واحدة من أولى أعماله بعد توليه السلطة – فقط ليوبخه بوريس جونسون بقسوة مذهلة معتبرًا ما فعله أوباما "ازدراء بريطانيا". على ما يبدو، حتى معاناة الأقارب المباشرين لا يمكن أن تبرر أي تدنيس لصورة تشرشل المقدسة.

عندما تحدث عن إرثه، كان لدى ونستون تشرشل قول مفضل، والذي عاد إليه غالبًا بأشكال مختلفة قليلاً. قال: "أعتبر أنه سيكون من الأفضل بكثير لجميع الأطراف ترك الماضي للتاريخ" ، "خاصة وأنني أعزم كتابة هذا التاريخ بنفسي". في الحياة، فعل ذلك بالضبط، نشر مئات الآلاف من الكلمات عن مآثره الخاصة؛ وفي الموت ، يبدو أنه نجح وحقق ما لم يكن يحلم به في أعتى أحلامه، تاركًا وراءه صورة ثقافية يحسدها عليه أي زعيم عالمي. لقد تم تلميع لحظات شجاعته بوهج ذهبي يُبهر الأبصار، وتم إخفاء من تاريخهً الأكثر قتامة، المُتشَكِّل من الإمبريالية والعنصرية والعنف الوحشي. لكننا عندما نسمح لهذه الصورة المزيفة بالظهور والتمكُّن، فإننا نرتكب ظلمًا خطيرًا، ظلمٌ في حق الماضي وفي حق المستقبل. وعندما نقلل من رعب العنف الاستعماري في جميع أنحاء العالم، ونسمح لأحد أبرز مرتكبيه بالتمتع بمقامِ البطل القـــومي، فإننا نشجع على إراقة المزيد من الدماء في المستقبل.

في مقدمته للكتاب، يوضح طارق علي أنه لا يؤيد الإطاحة بتماثيل تشرشل أينما وُجِدت، وإنما يشدد على خوض المعركة الأعمق في مجال التأريخ، ضد الإجماع الذي "يبدو مهيمنًا على هشاشته". هذا هو السياق الذي كُتب فيه كتاب: ونستون تشرشل: زمانه وجرائمه، والذي إذا كنت حاكمًا عليه بأي شكلٍ من الأشكال، فلا يسعني إلا أن أعلن بأنه كتابٌ قد نجح بشكل مثير للإعجاب.

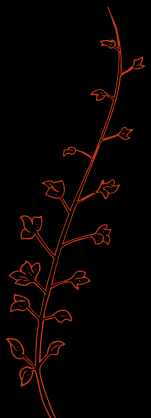

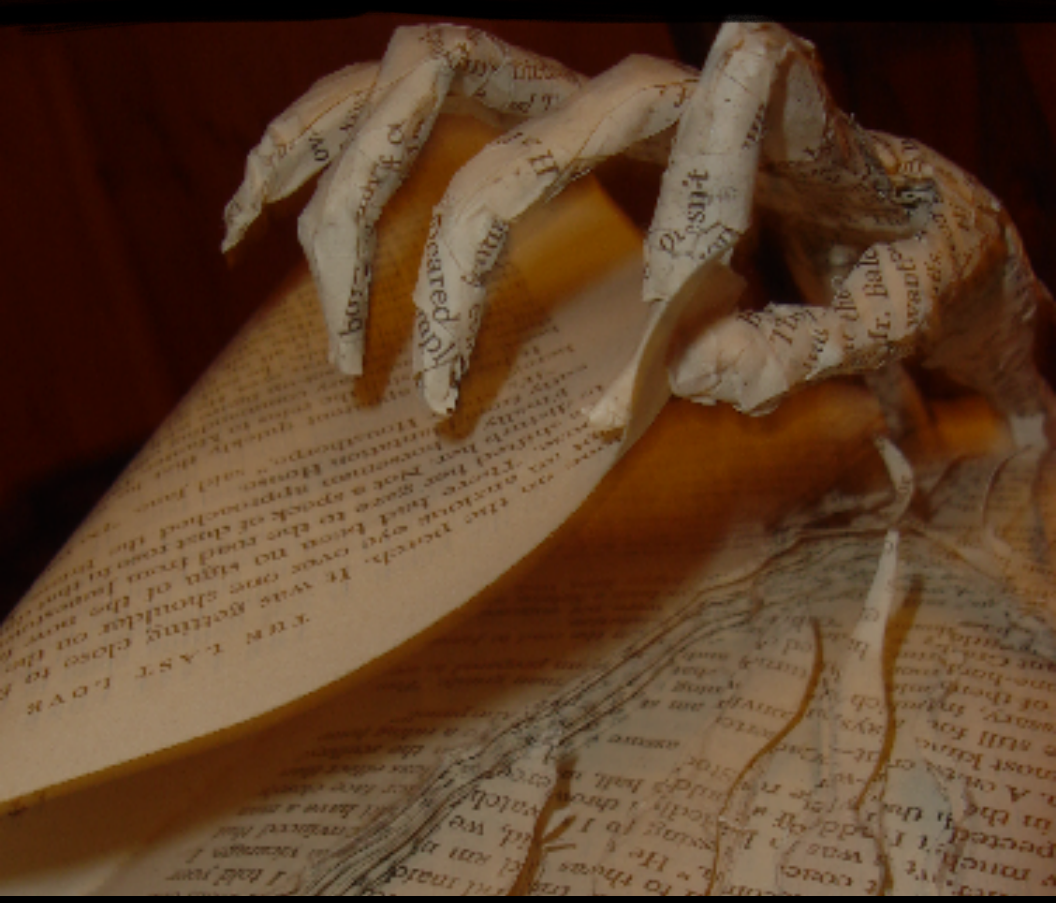

ألا يَجوزُ للكُتبِ أن تَقرأَ ذاتَها؟

-04-

ما يجب على المسلمين معرفته عن العائلة الملكية البريطانية

مسلم سكبتيك
ترجمة: أ. لبنى فاروق

الملكة اليزابيث الثانية، أطول ملك حاكم في التاريخ البريطاني، قد ماتت. على الرغم من كونه مغريا تفسير قوس قزح المزدوج الذي ظهر فوق قصر باكنغهام كعلامة على أن وفاتها هدية من الأعلى، يجب أن نعد أنفسنا لاستمرارية الإمبراطورية. كما هو الحال عند المافيا عندما تخلع رئيسًا، فإن آخرًا يقف في الطابور مستعدًا لملء الفراغ. ولا شك أن حكم الملك تشارلز سيكون أكثر إثارة للاشمئزاز من حكم والدته.

لا يمكننا التنبؤ بالمستقبل، ولكن يمكننا الجزم بأن الملك تشارلز سيستمر في دفع أجندة "إعادة الضبط العظيم" لأصدقائه في المنتدى الاقتصادي العالمي وانتبهوا، هذا هو الرجل الذي اشتهر بصداقته مع مقدم التلفزيون البريطاني والبيدوفيلي جيمي سافيل كما تم الكشف عنه مؤخرًا.

بالنسبة للنيام من الناس، كان موت الملكة إليزابيث مليئًا بالدموع والشموع والحداد، ولكن بالنسبة لنا نحن المنتبهون والذين يعرفون جيدًا جرائم العائلة الملكية البريطانية، فإن موتها ليس سوى نهاية فصل طويل من صفحات التاريخ المظلمة.

«نحن أقدم من الرأسمالية والاشتراكية»

هناك حكاية مشهورة يقال فيها إن الملكة اليزابيث، عندما سألت عن أيديولوجيتها، أجابت: «نحن أكبر من الرأسمالية والاشتراكية». على الرغم من أن صحة هذا الاقتباس مشكوك فيها، إلا أن فيه جزءا من الحقيقة. الملكية أقدم من الأيديولوجيات الحديثة، في الواقع الملكية أقدم من الفرع الإنجليزي لبيت "وندسور" الذي تنتمي إليه. ولفهم عقلية الناس الذين يرون أنفسهم على أنهم مقدر لهم أن يحكموا على الآخرين، علينا أن نعود إلى المصريين القدماء.

كان المصريون القدماء يعبدون فرعون باعتباره من نسل إله الشمس، رع، وفي أوروبا ادعى ملوك العصور الوسطى أن لديهم "حق إلهي" في الحكم على الآخرين. حتى اليوم في مجتمعاتنا ما بعد الملكية، لا تزال آخر العائلات الملكية المتبقية يشار إليها باسم "الدم الأزرق" كما لو أن الدم الذي يجري في عروقهم يختلف عن "عامة الناس".

هذا التخطيط المفصل في محاولة إضفاء الشرعية على الحكم من خلال المرسوم الإلهي ما كان إلا لتبرير حكم القلة على الكثرة. وإلا كيف يمكن للملوك والملكات والأباطرة والفراعنة إقناع أي شخص بالإنصات إليهم إذا لم يكونوا آلهة أو على الأقل من اختيار الإله؟ مع مرور الوقت، أدى هذا بالطبع إلى تصديق العائلات المالكة لأوهامها الخاصة معتقدين حقا أنهم متفوقون على الآخرين. وبالتالي فإن تصريح الملكة إليزابيث المزعوم: «نحن أكبر من الرأسمالية والاشتراكية»، أي أنهم أعلى من مثل هذه الأيديولوجيات التي اختلقها الإنسان.

وفي أحد الأمثلة الغريبة أدى هذا الهوس بالزواج داخل الأسرة وعلم الوراثة في الواقع إلى سقوط بيت هابسبورغ الإسباني وانهائه من الوجود.

بيتٌ ماذا الآن؟

فيما يتعلق بالعائلة الملكية "البريطانية"، فإن الجزء المثير للاهتمام من تلك القصة هو أنهم في الواقع ليسوا بريطانيين على الإطلاق. لم يصبح بيت "وندسور" بيت وندسور حتى عام 1917. لقد كانوا قبل ذلك ساكس كوبورغ- غوثا، الذين كانوا مرتبطين بالعائلات الملكية الأوروبية، ولكن بعد الحرب العالمية الأولى لم يكن الجمهور البريطاني سعيدًا جدًا بهذا الاتصال الألماني، لذلك أصبحوا "ويندسور".

هؤلاء الملوك – الذين يرتبطون بالتصاهر – لديهم قواسم مشتركة مع إخوانهم الأوروبيين وأخواتهم وأبناء عمومتهم وأعمامهم، أكثر بكثير مما لديهم مع الشعب البريطاني.

هذا يفسر، على سبيل المثال، لماذا دعمت العائلة الملكية "البريطانية" النازيين قبل الحرب العالمية الثانية (وخلالها) كما هو موثق اليوم، ما كان مجلبةً للإدانة بشكل خاص للملكة إليزابيث عندما ظهرت لقطات لها وهي تعطي التحية النازية ولعمها إدوارد الثامن وهو يصافح هتلر.

بالنسبة للملك الحالي تشارلز، ينبغي أن تكون صداقته الأبدية مع الأمير برنارد من هولندا بمثابة جرس إنذار لأي شخص على دراية بماضي برنارد.

فقد اعتاد أن يكون جزءًا من شوتزشتافل/ الوحدة الوقائية أو قوات الأمن الخاصة SS (Schutzstaffel))، وهو المؤسس المشارك لمجموعة Bilderberg السيئة السمعة. المجموعة التي كما تعلمون لا وجود لها والتي وفقًا لوسائل الإعلام السائدة لا تلعب أي أهمية على المسرح السياسي العالمي. فهي مجرد حفنة من أكثر الناس نفوذا ونخبة ورؤساء الدول الذين يجتمعون مرة واحدة في السنة لمناقشة... لا شيء؟

وماذا عن زوج الملكة، الأمير فيليب، عندما صرح أنه يريد أن يتجسد مرة أخرى على هيئة "فيروس قاتل بشكل خاص" من أجل المساهمة في خفض عدد السكان من الكوكب؟

بحثٌ عن السيطرة

هؤلاء الناس يرون الناس العـاديين كفيروس يجب استئـصاله من على وجه الأرض. هذا ما يـدور حولـه برنامج "المتـحولون البشريون"، إنهم يأملون أن تحل التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي محل البشر في النهاية حتى يتمكنوا من العيش كطبقة حاكمة لا يتوجب عليها "إقناع" البروليتاريا بمواكبة سياساتهم.

كل شيء متعب للغاية الآن إذ يجب إقناع الناس والتحكم بهم والتلاعب بهم من أجل مواكبة الأجندة العالمية. ألن يكون الأمر أسهل بكثير إذا تم تقليل عدد سكان العالم بحيث يتم السماح فقط للأشخاص "ذوي المكانة" بالعيش؟ وحسب وجهة نظر الملك تشارلز لا مانع من تأييد هذه الفكرة في سبيل علاج "الاحترار العالمي" وتغير المناخ. فإذا كان الناس هم أكبر الملوثين، لما لا نتخلص منهم فقط؟

يبدو أن جزء كبيرا من العالم في غيبوبة هذه الأيام إذ يتألمون لموت سيدة عجوز قصيرة تلوح للحشود وتشرب الشاي، وأنهم نسوا أن الملكة اليزابيث كانت وريثة عرش جنى ثروته من خلال نهب معظم ثروات العالم وموارده. ومن المغيب تمامًا عن معظم الناس أن هؤلاء النخب إنما يتآمرون لجمع ثروة كبيرة من خلال إخضاع الآخرين وقمعهم.

لا يوجد شيء يؤسف له سوى ملايين الأرواح التي أُهلكت من أجل الحفاظ على الإمبراطورية البريطانية والعائلة الملكية على حساب أكثر الشعوب حرمانا في العالم.

-05-

اليمن.. جزء لا يتجزأ من أمة محمد ﷺ

د. ليلى حمدان

هناك في أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية، في الجنوب الغربي من قارة آسيا، تقع بلاد اليمن، مزدانة بتاريخ مستمسك بالإسلام منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وبحضارة عريقة بعمر الآثار التي تحتضنها الأرض، ثم بطراز معماري فاتن، يتميز عن غيره بلمسات خاصة، تُعرف من بين كل اللمسات بشموخ يمني آسر!.

ويدور على أرض اليمن إلى يومنا هذا صراع محتدم، انعكست آثاره معاناة شديدة يقبع فيها الشعب اليمني منفردًا، قد حاصره الخذلان وقلة ذات اليد. لقد عاش اليمنيون أهوال الحرب وأشكال البؤس والتهجير والبطالة والأمراض المتفشية. ثم المجاعة التي باتت أخطر ما يهدد حياة أبناء هذه البلاد وأطفالهم الصغار.

فالتقارير تؤكد مؤخرًا على أن الجوع يهدد حياة 7 ملايين يمني، مع زيادة تضخم أسعار الغذاء في البلاد.

ولم يكن غريبًا أن تتأثر اليمن بأزمة انعدام الأمن الغذائي، خاصة مع ما يعيشه العالم من توترات وأزمات وحروب وصلت تداعياتها إلى كل مكان. كما أنها أزمة تأتي بعد خلفية ممتدة من الحرب الطاحنة في اليمن على مدى قرابة العقد من الزمان، وانهيار اقتصادي مستمر وتكالب الضباع الجشعة على ثروات البلاد، وعجز المساعدات الإقليمية والدولية المحدودة عن سد حاجات اليمنيين.

بسبب ازدواجية المعايير الدولية وسياسات المصالح الغربية التي تتناغم فيها منحنيات توزيع المساعدات مع منحنيات المصالح المكتسبة. أضف لذلك درجة الفساد التي رافقت عملية توزيع كميّة المساعدات المحدودة وسوء الإدارة وتلاعب المنظمين، وافتقاد القيادات الأمينة القوية فكانت مأساة مركبة بكل ما تعنيه الكلمة من معاني.

ومع إعلام منحاز بشكل كبير لأزمة أوكرانيا وتايوان، أهمل الملف اليمني بشكل مؤسف، وافتقدت تفاصيل الأزمة اليمنية من الساحة الإعلامية، فكان مشهدًا واضحًا للخذلان.

أخطر جرائم الحوثيين

وفي هذه الأثناء من الظروف المعيشية الصعبة، تستمر الذراع الإيرانية في اليمن في تدمير البلاد، وإن تعددت جرائمها فإن أخطرها على الإطلاق هي الهدم الذي تتعرض له عقيدة أهل السنة، فقد أضحت الأجيال في اليمن تتعرض لعملية تجهيل مستمرة، تنشر معها الخرافة، والانحرافات العقدية والفكرية.

إن جماعة الحوثيين تحدث تغييرات كبيرة في مناهج التعليم على جميع المستويات لتتسق مع أهداف المشروع الإيراني، حيث يتم فرضها على أهل السنة في مناطق سيطراتها.

يتم ذلك باستهداف الأطفال منذ الصغر لتنشئتهم على أسس إيران الفكرية وتشكيل وعيهم لخدمة الأجندة الإيرانية. فضلا عن استقطاب شباب اليمن للتجنيد في مشروع الرافضة التوسعي.

وللأسف فقد وجدت جماعة الحوثيين بغيتها في مناطق يمنية تنتشر فيها الأمية والجهل بالدين، فضخت فيها مفاهيمها المنحرفة عن الولاء والولاية، يرافق ذلك نشاطًا لافتًا لمراكز صيفية ودورات "تثقيفية" والسيطرة على المدارس ومناهج التعليم، ثم لا تتوان في تفجير المؤسسات التعليمية وهدمها حين يتعارض وجودها مع أهدافها التوسعية أو يزعج تخطيطها.

وبحسب آخر إحصاء من المنظمة الدولية للهجرة، فإن عدد المدارس المدمرة أو المتضررة في اليمن يقدر بحوالي 3000 مدرسة، وعدد الأطفال خارج النظام التعليمي يصل إلى ما يزيد عن 2.4 مليون طفل. وتشير تقارير لحرمان 4.5 مليون طفل من التعليم منذ بداية الحرب بسبب تدمير الميليشيات الحوثية للمدارس وتحويلها إلى ثكنات عسكرية ومراكز اعتقال.

وبنشر الانحرافات والتجهيل يتمدد المشروع الإيراني في اليمن على حساب أرواح اليمنيين بتجنيدهم أو بقتلهم، تماما كما فعل في العراق وسوريا، فما أرخص دماء أهل السنة عند الساسة الإيرانيين!.

حالة طوارئ

وهذا يدفعنا لطرح حلول ضرورية ملحة لحالة الطوارئ التي يعيشها اليمنيون، بإطلاق نداء لأصحاب الكفاءات التعليمية في كل العالم الإسلامي للعمل على توفير مناهج تعليمية تركز على ترسيخ عقيدة أهل السنة والجماعة وصناعة وعي لائق بالأجيال المسلمة في هذه البلاد.

يمكن للأهالي تعليم أبنائهم بها في منازلهم أو عن طريق التعاضد في كل حي، حيث يمكن للمتعلمين أن يؤسسوا مدارس منزلية، لأبناء الحي الواحد، لتعليم الأطفال وانتشالهم من مستنقع الجهل والجاهلية.

ويمكن توفير ذلك عن طريق شبكة الإنترنت، بتقديم دروس مجانية لكافة المستويات بحيث يسهل على الأطفال متابعة تعليمهم عن بعد.

ولا شك أن ابتكار طرق لحفظ ميدان التعليم من عبث الحوثيين يعد عاملًا مساعدًا لصمود اليمنيين في مناطق سيطرة هؤلاء، وهو من الثغور التي يُنتظر أن يسدها أصحاب الفضل والحكمة.

إن الحوثيين لا يخجلون من إقصاء كل من يختلف معهم عقائديًا من المناصب القيادية فلم الخجل من العمل على ترسيخ عقيدة أهل السنة في حرب قائمة على الأفكار قبل أن تقوم على السلاح.

بل إن الخاسر في المعركة الفكرية غالبًا ما يخسر في ميدان المواجهة، وهذه صراعات طويلة الأمد بحاجة لمخزون استراتيجي من الطاقات والكفاءات يُعمل على توفيره مبكرًا. وإهمال الأجيال يُعد أكبر جريمة وهزيمة.

وفي الوقت الذي ينشر فيه الحوثيون شبكاتهم التوسعية للهيمنة على كافة المرافق والقطاعات والمؤسسات التعليمية والتربوية في مناطق سيطرتهم يجدر بأهل السنة نشر شبكات موازية أخرى لتعليم يحصّن الأجيال من هذا الإفساد العظيم بما يتواءم وظروفهم الصعبة.

ولا ينقص العالم الإسلامي القدرات ولا الكفاءات التعليمية لصناعة برامج استدراكية تحصّن أبناء أهل السنة من عملية تبديل تقوم على قدم وساق، تستغل حالة الضعف التي تعيشها اليمن.

الغزو الفكري الإيراني: مخطط يتم تنفيذه

ومما يجدر التنبيه إليه أن استهداف قطاع التعليم جاء بأوامر إيرانية، فقد تم رصد هذا التحول البارز في تحريف المناهج وضخ الأفكار المخالفة لمنهج أهل السنة وإجبارهم على تعلم ما يخالف سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، منذ وصول الحاكم العسكري الإيراني "حسن إيرلو" إلى العاصمة صنعاء بصفته سفيرًا، للتغطية على طبيعة مهمته الحقيقية، وما هو إلا أحد قادة ما يسمى "فيلق القدس" الإيراني، الذراع الخارجية للحرس الثوري وعنصر مركزي في جهود طهران لإبراز قوتها في اليمن وسوريا وأماكن أخرى في الشرق كما أكدت التقارير، وهذا ما يفسر ارتفاع النبرة الطائفية في كافة الميادين وفق المخطط الإيراني منذ وصوله، وكانت أول أهداف مهمته، المؤسسات التعليمية حيث يحاول الحوثيون إحداث تحريف للهوية السنيّة بشكل كامل.

وقد رصدت ذلك منظمة "إمباكت – إس اي" الأمريكية المتخصصة في مراقبة المناهج التعليمية والكتب المدرسية في جميع أنحاء العالم، حيث قالت: "إنّ ميليشيات الحوثي حولت التعليم إلى أداة نشر القيم والثقافة الإيرانية".

وأكدت أنّ إيران متغلغلة من خلال الحوثيين في مراكز التعليم الابتدائي ومعاهد التعليم العالي في اليمن، ومن جانب آخر، يدرس المئات من الطلاب الحوثيين حاليًا في إيران.

لم يقف الأمر على المؤسسات التعليمية بل رافقه غزو فكري لجميع مداخل الثقافة في المجتمع اليمني، على مستوى الإعلام وعلى مستوى الفعاليات الثقافية، وأصبحت المهرجانات والمسميات الطائفية مهيمنة على المشهد.

ومن أبرز تلك المهرجنات ما يسمى بـ "يوم الولاية"، وذكرى المولد النبوي، وميلاد فاطمة الزهراء، وميلاد الإمام زيد، ويوم عاشوراء، وما يُسمى "أسبوع الشهيد"، وغيرها من الاحتفالات التي تذكرنا بأيام سيطرة العبيديين الرافضة على مصر.

إنها حملة حوثنة إيرانية للمجتمعات اليمنية السنيّة في مناطق سيطرة الحوثيين.

وتتقدم الذراع الإيرانية في اليمن في خططها في وقت تعتمد فيه على إطباق سياسة التضعيف للمسلمين اليمنيين في مناطق سيطرتها، حيث الأوضاع المعيشية سيئة للغاية، جرّاء أساليب النهب والاستغلال الذي يتعرض له اليمنيون.

فضلا عن المطاردات التي تحاصر أدنى نشاط دعوي أو تعليمي لأهل السنة، وهذا ما يفسر ارتفاع عدد مراكز الاعتقال والسجون.

وهكذا تفرض القيادة الحوثية الأمر الواقع على اليمنيين فلا يتمكنون من التفكير خارج نطاق تأمين لقمة العيش والأمن!

أحد الحلول: المؤسسات الإغاثية

ويبقى واجب المسلمين في كل مكان التعاضد والتكاتف وسد حاجات بعضهم البعض ومد الجسور مع أهل الاستقامة والصلاح في اليمن لإيجاد طرق لإيصال المساعدات لمن يحتاجها، فهو من أجلّ أعمال البر في زماننا.

وهذا يدفعنا لطرح فكرة إنشاء مؤسسات إغاثية مصغرة تعتمد على التزكيات والثقات وتفتح ممرات لتقديم الدعم لأهل اليمن، قدر المستطاع، فهذه الأمة تقوم على التكافل والعمل الخيري والتطوعي وعلى الزكاة والصدقات.

فالصراع سيتشد مع قابل الأيام والحاجة الماسة للتعاون على البر والتقوى وسد حاجات المسلمين ستصبح أبرز ما يهيمن على الساحات، والحكمة تقتضي المبادرة إلى إنشاء كل المشاريع التي تساعد في تثبيت قلاع أهل السنة في البلاد الإسلامية، وفي مقدمتها اليمن.

فالله الله في دعم أهل السنة أمام طوفان الفساد الإيراني الذي يمتد، ويدخل في ذلك فضح كل خائن وعميل ومتآمر والعمل على صناعة وعي يواكب التطورات التي تشهدها أرض اليمن، ليبصر اليمنيون أعداءهم بكامل تفاصيلهم ويميّزوهم عن أصدقائهم بكل بصيرة.

فَضَـــائِلُ

أَهلِ اليَمن

إن اليمن أرض الإسلام منذ عمق التاريخ إلى آخر الزمان، فأهل اليمن هم أول من أجاب إبراهيم عليه السلام حين أذن بالحج، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: 27).

وحين نذكر اليمن نذكر ملكة سبأ بلقيس رحمها الله التي استجابت لنبي الله سليمان عليه السلام، وأسلمت معه لله رب العالمين، وسخرت ملكها في خدمة دين الله.

وكان أول من كسا الكعبة في التاريخ، تبّع اليماني وكان أيضا أول أهل اليمن إيمانًا بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه. حيث أخرج ابن عساكر في تاريخه قال: أقبل تبع يفتتح المدائن حتى نزل المدينة وأهلها يومئذ يهود فظهر على أهلها، وجمع أحبار اليهود فأخبروه أنه سيخرج بمكة نبي يكون قراره بهذا البلد اسمه أحمد، وأخبروه أنه لا يدركه، فقال تبع للأوس والخزرج: أقيموا بهذا البلد، فإن خرج فيكم فآزروه وصدقوه، وإن لم يخرج فأوصوا بذلك أولادكم، وقال في شعره:

حُدِّثْتُ أن رسول المليـك
يخرج حقًا بأرض الحرمْ

ولو مُدّ دهري إلى دهره
لكنت وزيرًا له وابن عمْ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا تبعاً؛ فإنه كان قد أسلم) [1].

وكان أهل اليمن أول من جاء بالمصافحة، فعن أنس بن مالك قال: لما جاء أهل اليمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد جاءكم أهل اليمن، وهم أول من جاء بالمصافحة"[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهل اليمن:" جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية"[3].

وعن ابن مسعود قال- وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بيده نحو اليمن: "الإيمان هاهنا – مرتين -، ألا وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين – حيث يطلع قرنا الشيطان -: ربيعة ومضر "[4].

قال ابن رجب رحمه الله:" وهذا إشارة منه إلى أبي موسى رضي الله عنه، ومن كان على طريقه من علماء أهل اليمن كأبي مسلم الخولاني وأويس القرني ووهب بن منبه وغيرهم من علماء أهل اليمن، وكل هؤلاء من العلماء الربانيين... ولم يكن تميزهم عن الناس بكثرة قيل وقال ولا بحث ولا جدال".

وفي السير نشاهد هذه المكانة لأهل اليمن تتكرر مع الصحابة رضي الله عنهم فحين قدم ناس من أهل اليمن على أبي بكر رضي الله عنه أيام خلافته وسمعوا القرآن فجعلوا يبكون، فقال أبو بكر: "هكذا كنا ثم قست القلوب".

وأخرج البخاري في تاريخه عن القاسم قال: " أتيت ابن عمير فرحب بي ثم تلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ منكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المَائدة54]، ثم ضرب على منكبي وقال: أحلف بالله لمنكم أهل اليمن، ثلاثاً".

وروى الطبري في تفسيره عن محمد بن كعب القرظي: "أن عمر بن عبد العزيز أرسل إليه يومًا، وهو أمير المدينة، يسأله عن ذلك: فقال: محمد: يأتي الله بقوم، وهم أهل اليمن، قال عمر: يا ليتني منهم!".

لقد وصفت النصوص أهل اليمن بأنهم أكثر الناس تشبهًا بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اتباع السنة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه رأى رفقة من أهل اليمن في الحج رحالهم الأدم، فقال: "من أحب أن ينظر إلى أشبه رفقة كانوا بأصحاب رسول الله فلينظر إلى هؤلاء".

وعن ابن عباس: قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قال: "الله أكبر الله أكبر جاء نصر الله وجاء الفتح، وجاء أهل اليمن قوم نقية قلوبهم، لينة طاعتهم، الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية"[5].

ولقد كان أهل اليمن أسرع الأقوام استجابة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وقبول الحق.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في رجالهم: "خير الرجال رجال أهل اليمن"[6].

موقع أهل اليمن في صراع الأمة

ولم يزل أهل اليمن منذ امتداد التاريخ يساهمون في بناء مجد الأمة، فقد "كانت لهم اليد البيضاء في الفتوحات الإسلامية في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته في فتوح العراق والشام وبلاد الترك وأفريقية والأندلس وأوروبا حتى وصلوا إلى أبواب فرنسا، وما زالت معالمهم في إسبانيا شاهدة على آثارهم. فمن ذلك: أن غالب أهل معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون على الفرس وكانت بوابة فتح فارس كان غالب جندها من اليمن، بل كانت قبيلة بجيلة اليمنية وحدها ربع الناس فضلاً عن غيرهم. وفي معركة نهاوند أيضًا أبلوا بلاء حسنًا، وفي معركة بلاط الشهداء كذلك، وغيرها"[7].

وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "إن الله عز وجل استقبل بي الشام وولى ظهري لليمن، وقال لي: يا محمد، جعلت ما تجاهك غنيمة ورزقًا، وما خلف ظهرك مدادًا"[8].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الملك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة، والأمانة في الأزد يعني: اليمن"[9] وعند أحمد: "والشرعة في اليمن".

لقد بشرنا النبي صلى الله عليه وسلم بنصر عظيم على يد أهل اليمن في آخر الزمان، ففي حديث عبد الله بن حوالة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة: جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق" قال ابن حوالة: خر لي يا رسول الله، إن أدركت ذلك. فقال: عليك بالشام؛ فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبى إليها خيرته من عباده، فإن أبيتم فعليكم بيمنكم، واسقوا من غدركم، فإن الله توكل لي بالشام وأهله"[10].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يَخْرُجُ مِنْ عَدَنٍ أَبْيَنَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا، يَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، هُمْ خَيْرُ مَنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ". (السلسلة الصحيحة).

وهذه أحاديث مبشّرة بدور اليمن في مستقبل الأمة الذي يقتضي الإعداد له مبكرًا بحفظ منهج أهل السنة والجماعة.

ما يليق بأهل اليمن

عن عتبة بن عبد: أن رجلاً قال: يا رسول الله، العن أهل اليمن؛ فإنهم شديد بأسهم، كثير عددهم، حصينة حصونهم قال صلى الله عليه وسلم: "لا "، ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعجمين: فارس والروم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مر بكم أهل اليمن يسوقون نساءهم ويحملون أبناءهم على عواتقهم فإنهم مني وأنا منهم"[11].

وجاء في البخاري دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:"اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا". قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا؟ قال: "اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا"، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا؟ فأظنه قال في الثالثة: "هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان"[12].

ويكفي أهل اليمن شرفا أنهم أول من يشرب من حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة. فعن ثوبان أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم"[13].

وهذه كرامة لأهل اليمن في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وفي تقديمهم في الشرب منه صلى الله عليه وسلم؛ لحسن صنيعهم وتقدمهم في الإسلام فالأنصار يرجع أصلهم إلى اليمن وكان لهم الدور الكبير في مناصرته ومناصرة دعوته صلى الله عليه وسلم.

والأنصار هم من الأوس والخزرج وأصلهم من اليمن نزحوا إلى المدينة بعد حادثة انهيار سد مأرب المعروفة بعد أن تفرق أهل اليمن أيادي سبأ فسكنوا يثرب وكانوا نعم الأنصار، آخى بينهم النبي صلى الله عليه وسلم وبين المهاجرين. ولعل هذا ما يفسر رقة قلوب الأنصار وسرعة استجابتهم لدعوة الإسلام.

ولا يليق بأهل اليمن وما خصّهم به الإسلام من فضل ومكانة إلا أن يقفوا في الصفوف الأمامية لحماية رسالة الإسلام كما جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم وحملها صحابته من بعده، رضي الله عنهم، وحماية أهل السنة، أمام المد الصفوي الحوثي الرافضي. ليكونوا خير خلف لخير سلف من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يليق بهم السماح لأذناب الرافضة بطمس الهوية السنية في اليمن، فمستقبل الأمة كلها وليس اليمن فقط يتصل اتصالات وثيقًا باليمن.

ولا شك أن اليمن ككل بلاد فيها الصالح والطالح وإنما حديثنا لمن لم يبدلوا وما زالوا ينادون بإعلاء كلمة الله والتمسك بمنهج النبي صلى الله عليه وسلم، فهم من تعنيهم معالم الحق، وهم من يتعلق بهم الحديث.

لقد جاءت هذه الفضائل في أهل السبق والاستقامة من أهل اليمن ليس للاستعلاء على المؤمنين إنما لأداء حقها كاملا وبذل النفس والنفيس في استحقاقها كما فعل أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم:"لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار"، وقال عنهم كما في حديث البراء عند البخاري وغيره: "لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق"، وكان كثيرا مايدعوا لهم كما في قوله "اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار".

وفي الختام، إن الحديث عن واقع اليمن يدفع نفسه بقوة لنذكّر الناس أن هذه الأمة أمة واحدة وأن نصر أهل السنة في صراع عقدي بحت من أوجب الواجبات لا يجب التقاعس عنه، فكل الساحات الدعوية والتعليمية والطبية والاقتصادية والإعلامية وغيره من ساحات الدعم يجب أن تتكاتف على أساس هذا المبدأ العقدي في نصرة أهل السنة والوقوف كسد منيع أمام أطماع المشروع الإيراني المفسد.

عن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[14].

اللهم اجمع المسلمين على كتابك وسنة نبيّك صلى الله عليه وسلم واكفهم شرور أهل البدع والنفاق والكفر.

هوامش

[1] قال الألباني: وبكار بن عبد الله – هو اليمامي – قال الذهبي: " ما علمت به بأسا ". قلت (أي: الألباني): فهو شاهد مرسل جيد. أي: لحديث عائشة.
[2] رواه أحمد وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.
[3] متفق عليه.
[4] رواه البخاري.
[5] رواه ابن حبان، وهو صحيح.
[6] رواه أحمد، وهو صحيح.
[7] فضائل أهل اليمن (1) (الألوكة)
[8] رواه الطبراني، وهو صحيح.
[9] رواه الترمذي، وهو صحيح.
[10] رواه أبو داود، وهو صحيح.
[11] رواه أحمد والطبراني، وهو حسن.
[12] رواه البخاري.
[13] رواه مسلم.
[14] أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، (4/ 1999)، برقم: (2586)، والبخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (8/ 10) برقم: (6011)، بلفظ: ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى.

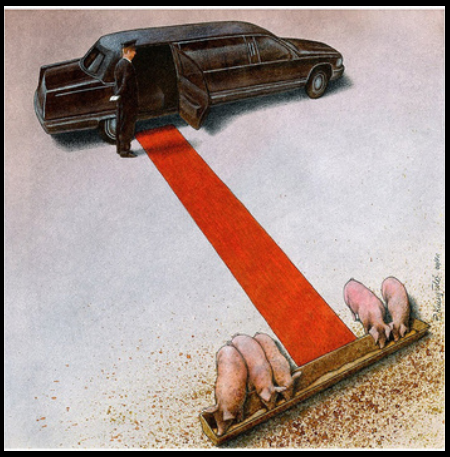

«كَمْ
مِنْ سَادةٍ
لَمْ يَكُونُوا
سَادةً إلا
لأنّ العَبيد
ظَلُّوا
عَبِيدًا.»

-06-

من معاني سورة الضحى

أ. مصعب حسين منصور

إنّ دواعي القرآنِ ومعانيه تدفع الإنسان دوماً للترقي في معرفةِ نفسه ومعرفة ما حوله من الأحداث وتدعوه للنظر في العوالم وتقلبات الأيام والبحث عن الحكمة من وراء الخلق، والقرآن الكريم لا يحتوي على التعاليم والأحكام فحسب ولكّنه يؤسس أولاً للإيمان وللفطرة ويُقيم في النفس المعرفة الضرورية للغاية من الخلق والمصير.

والمتدبر لسورة الضحى يرى أنها تريد أن تصِل بالإنسان لفكرة أساسية فهي تحتوي على قيمة مهمة تدفع النفس لترك القنوط أو اليأس، وتعلّمه أن الحال يتقلّب بين شدّة ورخاء كتقلّب الحياة بين ضحى وليل. والقسم بالضحى وبالليل إذا سجى قسمٌ بتحويل حال العباد المؤمنين بالله من الاستضعاف إلى العزة والقوة وهم يواجهون ظُلمات الضلال وفساد الأنظمة الاجتماعية.

إن هذه السورة الجليلة تخاطب الإنسان اليائس فتُحْيِيه، وتخاطب الغنّي فتثنيه وتكبحه عن الطغيان إن كان من أهل النظر في القرآن، ومن قرأها وهو فقير امتلأ يقيناً بالله الرزّاق الفتّاح، ومن قرأها وهو في سوح نِعم الله المبسوطة عرف أن ذلك من عند الله فَلم تغرّه الحياة الدنيا وزخرفها فشَكر.

المعنى الأول: تقلّب الحال من السُنن

﴿وَالضُّحى ۝ وَاللَّيلِ إِذا سَجى﴾ [الضحى: ١-٢]

إن تقلّب الليل والنهار آية من أعظم آيات الله في الكون، والغافل عنها غافلٌ عن خالقها، والضحى يحمل معاني الإشراق وتجدّد الحياة بالنور ليستأنف الناس معاشهم ويقوموا بدورهم في العبادة والعمران ويؤدوا وظيفتهم في هذه الأرض.

وكذلك الليل ضروري كضرورة الصباح، ضروري لأن الانسان لا طاقة له بأن يواصل ليله ونهاره في الكّد والسعي، فقد منحه الله وفقاً لفطرته قدرة محدودة،

فهو لكي يواصل على سجيّته وطبيعته يحتاج كذلك لليل الساجي الذي يتناسب مع نومه وسباته ويتّسق في ستره مع سائر وظائفه ولذلك شبّه الله في مواضع أخرى الليل باللباس لستره وغطائه للإنسان ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباسًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

ولعظمة هذين الوقتين وما يحملانه من الدلالات والعِبر والمنافع أقسم الله بهما لعظيم شأنهما وجليل قدرهما في حياة الناس والأنعام والنبات وسائر المخلوقات التي يعرفها الإنسان والتي لا يعرفها كذلك، فليس الإنسان وحده المستفيد من تقلّب الليل والنهار. كما أن هذا التقلّب يبعث في المصاب باليأس الأمل فالله الذي يقلّب الضحى والليل يستطيع أن يقلّب حال الناس من الفقر إلى الغنى ومن الحاجة إلى الكفاية ومن الضلال إلى الهداية، وسيأتي في بقيّة آيات السورة تبيان ذلك.

المعنى الثاني: الله لا يترك أولياءه

﴿ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾ [الضحى: ٣]

وقد كان المشركون يُغيظون النبيّ بقولهم أن ربّك يا محمد قد تركك وانقطع عنك بتنزيل الهدايات والوحي، والله هنا يؤكد لنبيّه أنه ما ترك عنه تنزيل الوحي ولكنّ الوحي يأتيه وينقطع ولا يتنزّل جملة واحدة، تماماً كانقطاع الليل والضحى وإتيانهما، وهي كذلك إشارة للمؤمنين أن رحمة اللهِ لم تنقطع عنهم أبداً إنما هي واصلةٌ متصلة بهم وإن كانوا في حالِ شدة أو فقر أو حاجة.

واللهُ تعالى كما لم يودّع نبيّه بتنزيل البركات والخيرات، فإن على من هو على ملّة محمد صلى الله عليه وسلّم أن يثق في ربّه الذي لا يترك عباده تتخطفهم رياح الضّراء، بل لابد أن يعلم أن الحياة البشرية تتداول فيها الأيام بالعبد من الضّراء للسّراء ومن الخيرات للشرور ابتلاء للناس إما مغفرةً للذنب أو رِفعة في الدرجات.

المعنى الثالث: خيرية الآخرة على الأولى

﴿وَلَلآخِرَةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الأولى﴾ [الضحى: ٤]

وهنا اللفتة العظيمة، أن الآخرة خير من الدنيا، فإن كانت الدنيا تتقلب فيها الأحوال كتقلّب الضحى والليل، فإن الآخرة دار القرار ودار الثُبوت فليس فيها تقلّبُ أحوالٍ إنما هي نعيمٌ لا ينقطع ولا يتقلّب ولا تشوبه الأحزان ولا تقطعه المصائب كما قال الله في موضع آخر ﴿لا مَقطوعَةٍ وَلا مَمنوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] وقال كذلك ﴿خالِدينَ فيها لا يَبغونَ عَنها حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] فلا يتحوّل حالها من حالٍ إلى حال كما هو اليوم. والنظرُ بعين التأمل للآخرة أدعى للصبر على الأولى وما تحمله من تقلّبات، فرسوخ اليقين بالحياة الآخرة وأنها حقاً دار البقاء والنعيم يدفع بالإنسان إلى الرضا بالنوازل الدنيوية العاجلة فإن كانت شراً صبر وإن كانت خيراً شكر.

المعنى الرابع: البشريات والذكريات

﴿وَلَسَوفَ يُعطيكَ رَبُّكَ فَتَرضى ۝ أَلَم يَجِدكَ يَتيمًا فَآوى ۝ وَوَجَدَكَ ضالًّا فَهَدى ۝ وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغنى﴾ [الضحى: ٥-٨].

ولسوف يعطيك ربُّك وإن حُرمت حيناً، يعطيك فيرضيك، ألم يجدك من قبلُ يتيماً فآواك من اليُتم، ووجدك ضالاً باحثاً عن الحقيقة فهداك لرشد الوحي، ووجدك عائلاً فقيراً فأغناك وكفاك.

وهنا تتجلى الغاية الأساسية لسورة الضحى، إذ يُبشر الله نبيّه والمؤمنين المتدبرين لهدايات القرآن يبشرهم بالعطاء بعد الحرمان ويذكّرهم

كذلك بنعمه عليهم من قبل فهو الذي خلقهم ورزقهم وهداهم وأغناهم، فإن عرض عليهم عارضٌ من نقص فليذكروا نعم الله عليهم وليستبشروا بعطاء الله تعالى العاجل والآجل.

ولابد للإنسان إذا أغناه الله وكفاه مؤنة الحياة الدنيا من الغنى بعد الفقر ومن الهداية بعد الضلال ومن الإيواء بعد اليُتم، لابد له أن يشكر فلا يطغى فيقهر اليتامى فقد كان في مثل حالهم، ولا يستكبر فينهر السائلين، وأن يُحدِّث بنعم الله عليه وعلى الناس فيذكر أنها من فضل ربّه. ولذلك ختم الله هذه السورة بهذه التعاليم. فإن كان لحال الضّعف آداب من الصبر والتعفف، فإن للغنى آداب التعاطف والتراحم والإنفاق والتواضع والشكر.

ولذلك قال الله عز وجل:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ٩-١١]

وهكذا فإن القرآن كتابٌ قد نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلّم فصار أفضل الخلق بما تفضّل عليه ربّه من جلال هذه الرسالة، وقد نزل في شهر رمضان فصار به خير الشهور، وفي ليلة القدر فكانت خير الليالي، وهكذا فإن هداياته المبسوطة تجعل من كل شيء تحلّ به نوراً.

كما أنه ليس كتاباً لمجرد تحصيل البركة وإن كانت البركة من أخص خصائصه فهو كتابٌ مبارك، إنما هو كتاب الهدايات الشاملة في شأن الأفراد والجماعات، فتراه يخاطب الضمير ليربّيه ويزكيه ويخاطب المجتمع في شأن بعضه البعض فيرشده للتعاون والتعاضد، ويخاطب القرى والأمم لأصول المعرفة بالله ويحضهم للجمع بين الحضارة والروح.

-07-

فوائدٌ وكنوز من الأخلاق والسير في مداواة النفوس

أ. ليلى حجار

تخيّل أنّكَ في مجلسٍ مع الإمام ابن حزم رحمه الله، تستمعُ إلى نصائحه، تتعلمُ من تجاربه، وتستفيد من حكمته. أعلمُ أنّ ذلك لن يحصل على أرض الواقع، ولكنّه حتمًا يحصل مع الكتب. فكما قالَ كارل ساغان: "لمجرّد أن تنظر في كتاب، ستسمع صوتاً لشخص آخر، ربّما مات منذ ألف عام. أن تقرأ يعني أن تبحر في الزّمن!".

وفي كتاب (الأخلاق والسير في مداواة النفوس) فوائدٌ وكنوز تُنير البصيرة و تحرّك العقول. فأحببت نقل بعضٍ منها لتعمّ الفائدة إن شاء الله.

من فضائلِ العلم: الاشتغالُ عن الوساوس

يقول ابن حزم رحمه الله: "لو لمْ يكن من فائدة العلم والاشتغالُ به إلا أنّه يقطع المشتغل به عن الوساوس المُضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس: لكان ذلك أعظم داعٍ إليه؛ فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكرهُ!".

وسرعان ما تَبادر لذهني بعد قراءة هذه الفائدة، أنّ الانشغال بالعلم وخاصةً في يومنا هذا، ينتشلك من وحل الغوص في تفاهات وسائل التواصل الاجتماعي، فكم منّا من يقضي ساعات تلو ساعات في متابعة ما هو هابطٌ تافهٌ لا قيمة له. فمن لاً يشغل نفسه بالحق شغلته بالباطل ولا بد.

وكم منّا من تقتله الأفكار والوساوس، دافعةً به نحو الإكتئاب والإحباط. فيمرّ العام تلو الأخر وهو على حالٍ واحدة، يزداد عمره وينقص نضجه وعلمه.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَيسَ لِلإِنسانِ إِلّا ما سَعى﴾ [النجم: ٣٩].

فما أجمل أن ينظر الله إليك فيراك منشغلًا فيما ينفعك، تسعى بكل ما أوتيت من قوة لنيل رضاه وكسب محبته.

الاقتداء بالحبيب محمد ﷺ أصل الفلاح

كثيرٌ منا عندما يريد أن يتحلى بالفضائل ومحاسنِ الأخلاق يبحث له عن قدوة يقتدي بها، فأين السبيل؟

إليكم نصيحة ابن حزم لمن أراد الفلاح: "من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها: فليقتد بمحمد رسول الله ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه".

أَوَلَا يكفي أنّنا بالاقتداء به وباتباعه ﷺ ننال محبة الله تعالى؟! فكما قال جل وعلا في كتابه الكريم: ﴿قُل إِن كُنتُم تُحِبّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعوني يُحبِبكُمُ اللَّهُ وَيَغفِر لَكُم ذُنوبَكُم وَاللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وكمَا أنّ لنا وردًا يوميًّا من القرآن الكريم، فلنحرص أيضًا على أن يكون لنا ورد في الاطلاع على سيرته ﷺ، سواء بمطالعة كتابٍ أو بمشاهدة برنامج.

ومن المحاضرات التي أنصح بمشاهدتها، هي سلسلة المهارات الحياتية من السيرة النبوية للأستاذ ياسر الحزيمي.

فهل هناك أفضل من تعلم مهارات الحياة على ضوء سيرة نبي كان خلقه القرآن؟! عليه أفضل الصلاة والسلام.

داءٌ يفتك بسلامة صدرك وهناء عيشتك

لمَ أصبحنا غير قانعين بحياتنا رغم كم النعم التي تحيطُ بنا؟! لم أصبحت الشكوى تدخل في أغلب أحاديثنا والتذمر يكاد أن يكون من طبيعتنا؟

لأننا اعتدنا النظرة الخاطئة وتركنا النظرة الصحيحة.

ففي هذا الكتاب يقول ابن حزم رحمه الله: "انظر في المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك".

فمن اعتاد النظرة الخاطئة بأن ينظر دائمًا إلى من يفوقه بالمال والحال والصحة، فعيشته حتمًا ستكون عيشة منكّدة لا رضى فيها، ولن يقنع بحياته، و سيعمى بصره من رؤية النعم التي تغمره.

عكس من ينظر إلى من دونه في ذلك، فيحمد الله تعالى على ما أعطاه من النعم، وينظر إلى من فوقه في الدين والعلم والفضائل فيسارع في الخيرات مجتهدًا في إصلاح نفسه وترقيتها نحو الأعلى والأفضل بتوفيق من الله تعالى.

عليكَ البلاغ وعلى الله الهداية

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهدي مَن أَحبَبتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهدي مَن يَشاءُ وَهُوَ أَعلَمُ بِالمُهتَدينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فعندما ننصح أحدهم ساعين إلى هدايته وإعادته إلى رشده، نوطّن أنفسنا على أنه سيقبل نصيحتنا بصدر رحب. ونُصدم عندما نرى صدوده وعدم قبوله. وينتابنا شعور على أن النصحية التي لا تسمع وتطبق لا داعي إلى قولها. وكأننا وضعنا شرطًا في النصيحة، وهو شرط قبولها.

وهذا ما تحدث عنه ابن حزم في هذا الكتاب القيم، فقد قال في آداب النصحية: " وإذا نصحت فانصح سرًا- لا جهرًا- وبتعريض -لا تصريح- ؛ إلا ألا يفهمَ المنصوحُ تعريضكَ؛ فلا بد من التصريح له، ولا تنصح على شرطِ القبول منك".

فلن تتوقف إذن عن إعطاء النصائح إن وضعت في ذهنك هذه القاعدة الذهبية وهي أن لا تنصح على شرطِ القبول منك.

وليكن شعارك قول شعيب عليه السلام عندما قال لقومه: ﴿..إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوفيقي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيهِ أُنيبُ﴾.

فلنبادر بالإصلاح قدر ما نستطيع، ولنتذكر أنّنا مأمورون بالأمر عن المعروف والنهي عن المنكر، وإن كانت الاستجابة بعيدة المنال. فيكفي أنها تنجينا من عذاب الله عز وجل.

وتأمل جيدًا قوله تعالى في سورة الأعراف، في سياق حديثه عن أصحاب السبت: ﴿وَإِذ قالَت أُمَّةٌ منهُم لِمَ تَعِظونَ قَومًا اللَّهُ مُهلِكُهُم أَو مُعَذِّبُهُم عَذابًا شَديدًا قالوا مَعذِرَةً إِلى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقونَ﴾، ﴿فَلَمّا نَسوا ما ذُكِّروا بِهِ أَنجَينَا الَّذينَ يَنهَونَ عَنِ السّوءِ وَأَخَذنَا الَّذينَ ظَلَموا بِعَذابٍ بَئيسٍ بِما كانوا يَفسُقونَ﴾.

ولنا في هذه الآيات لعبرة! فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ولنتذكر أنّ علينا البلاغ وعلى الله الهداية.

الفضائل والرذائل

ومن الدرر النفيسة لابن حزم في حديثه عن الفضائل والرذائل قوله : "ليس بين الفضائل والرذائل، ولا بين الطاعات والمعاصي: إلا نفار النفس وأنسها فقط؛ فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات، ونفرت من الرذائل والمعاصي، والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي، ونفرت من الفضائل والطاعات، وليس هاهنا إلا صنع الله تعالى وحفظه."

لنتأمل هذا الكلام الدقيق، ولنراجع أنفسنا ونسألها: أتأنسين بالفضائل والطاعات ويطمئن قلبك، وتنفرين من المعاصي والآثام التي لا ترضي الله تعالى؟

فإن كنتِ كذلك فهنيئًا لك السعادة والطمأنينة.

فوالله إنّ الطمأنينة لا تزور إلا القريب من الله تعالى، الذي يعبد الله في السراء والضراء، ففي الرخاء يشكره وفي الشدة يدعوه ويسأله.

وكما قال نبينا وحبيبنا ﷺ: "عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ." رواه مسلم.

ويا أسفي على من تأنس نفسه بالرذائل والآثام، فتراه يطرب عند سماعه للأغاني، ويهنأ ويسعد في مجاهرة غيره للمعاصي.

تُزيّن له نفسه سوء عمله فيراه حسنًا، و يدعوه أحدهم لاتباع الحق فيأبى أن يتبع إلا الباطل.

فذلك والله لهو الخسران المبين!

فلنعوّد أنفسنا على أن نسأل الله سبحانه وتعالى في كل يوم أن يحببّ إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا، وأن يكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

من فخاخ الشيطان في الرياء

يقرر أن يبدأ مشروعه في حفظ القرآن الكريم فيتردد، يَهمّ للنطق بكلمة الحق ولكنه يسكت، يريد أن يطلب العلم فما يلبث إلا أن يتخلى عن فكرته.

فما هو السبب في كل ذلك؟!

هو الخوف من الوقوع في الرياء، والذي هو فخ من فخوف إبليس، يتألم عند إقبال العبد على الطاعات والخيرات، فيوسوس إليه في نفسه قائلًا: كيف ستبدأ في هذا وأنت لا تريد إلا الرياء ومدح الناس لك؟ ألا تخجل من نفسك أن نيتك ليست خالصة لله؟!

فييأس من نفسه ويترك مباشرة عمل الخير، وهكذا، حتى يبتعد شيئًا فشيئًا عن الطاعات، مطبطبًا على نفسه أنّه سيعود للعمل فور أن تخلص نيته لله تعالى.

يقول ابن حزم في هذا: "لإبليسَ في ذمّ الرياء حُبالةٌ؛ وذلك أنّه رُبّ ممتنع من فعل خير خوفَ أن يُظنّ به الرياء! فإذا طرقكَ منه هذا فامضِ على فِعلك؛ فهو شديد الألم عليه".

فنصيحته هي أن لا تتوقف وامض على فعلك، واعلم أن هذا فخ من فخوخ إبليس، فهو يتألم عندما يراك مقبلا على الله متقربًا إليه بفعلك الطاعات.

وكما قال سفيان الثوري رحمه الله: "تعلّمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله".

وكثير من يتخلى عن فكرة حفظ القرآن بسبب هذا الفخ.

ولو أنه بدأ في حفظه وتدبره وفهم معانيه، لأدبه القرآن، وعرفه بالخالق العظيم الغني عن المخلوقين وعن أعمالهم، وعلّمه أن الأعمال تحبط وتذهب هباءا منثورا إن كانت لغير الله سبحانه.

وأنه سيقف بين يدي الله سبحانه يوم يفر المرء من أبيه، ويوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم معافى من الرياء وحب السمعة.

بالمقابل، لنحرص على أن يكون لنا أعمال لا يعلمها إلا الله، فمثلاً أن نتصدق في السر، وأن نقيم الليل حين تشتد العتمة وينام الأنام، ولنكثر من تلك الطاعات السرية، فهي التي تعيننا بفضل الله على أن نخلص الأعمال العلنية بإذن الله تعالى.

كانت هذه بعضًا من الثمرات التي قطفتها من بستان هذا الكتاب. أرجو من الله أن ننتفع بها في ديننا ودنيانا.

ولن يسعني المجال في ذكر جميع الفوائد من الكتاب، لذا أدعوكم لجني الفوائد الأخرى بقراءتكم له.

ما وراء المركزية الأوروبية

-08-

إنغريد هارفولد كفانغرافن
ترجمة: أ. محمد رفيق كودري

إذا كنت ترغب حقًا في إنهاء المشروع الاستعماري، فتجاوز النقد الثقافي إلى الرؤية البنيوية العميقة للاقتصادي سمير أمين.

مع إصدار كتاب "الاستشراق" عام 1978، أصبح إدوارد سعيد واحدًا من أكثر علماء عصرنا تأثيرًا. لقد غير الكتاب دراسة تاريخ العالم الحديث بالكامل، حيث قدم رؤى حول كيف يُشكّل الخطاب العنصري الإمبراطوريات الأوروبية، وكيف يساهم في بقائها. بالنسبة لأنشطته السياسية، اجتذب سعيدٌ وعمله عددًا من النقّاد اليمينيين، وعلى الأخص برنارد لويس. وأقل شهرةً في الغرب، هو سمير أمين، الاقتصادي المصريّ الذي صاغ مصطلح "المركزية الأوروبية". ظهر المصطلح في كتاب سمير أمين المُعنوان بـ "المركزية الأوروبية"، والذي صدر عام 1988، وانتقد رؤية سعيد للإمبراطورية، وقدم وجهة نظر بديلة لا تستند على الثقافة أو الخطاب، ولكن عَلى الفهم الماديّ للرأسمالية والإمبريالية.

أمضى سعيدٌ معظم حياته المهنية في الجزء الشمالي من العالم، في مدينة نيويورك، بينما أمضى أمين معظم حياته في أفريقيا، محاولًا وساعيًا بناء مؤسسات أكاديمية وسياسية أفريقية تتحدى التبعية التي أنشأتها الإمبريالية. عندما قابلتُ أمين لإجراء مقابلة في عام 2016، كان عمره 85 عامًا، وكان لا يزال مشاركًا بقوة في مشروع بناء مؤسسات بديلة تتحدى النظرية

الاجتماعية الأوروبية. على الرغم من وفاته في عام 2018، إلا أن إرثه لا يزال حيا اليوم.

الاقتصادي سمير أمين في مقابلة له عام 2009.

في كتابه "المركزية الأوروبية"، كشف أمين عن حقيقة التشكل المعيب لقصة ظهور وتطور الرأسمالية في أوروبا. لقد جادل بأن قصة الرأسمالية الشائعة الناشئة عن خصائص العقلانية والغَلبة الأوروبية – والتي لا تزال تهيمن على النظرية الاجتماعية – هي قصة مشوهة، لأنها تخفي الطبيعة الحقيقية للنظام الرأسمالي، بما في ذلك دور الإمبريالية والعنصرية في تاريخ هذا النظام. وبدلًا من تقديم تفسيرٍ علميٍّ وموضوعيٍّ، حاجج أمين بأيديولوجية المركزية الأوروبية. بالنسبة له، فإن افتراض أن الرأسمالية يمكن أن تتطور في "الأطراف" (وهو اللفظ الذي استخدمه لوصف الدول الفقيرة)، بالطريقة التي تطورت بها في أوروبا هو أمر مستحيلٌ منطقيًا. يُشير أمين أيضًا إلى أن أساس الوحدة الثقافية الأوروبية هو أساسٌ عنصريٌّ، نظرًا لأنه يخلق معارضةً زائفة وخاطئة بين اللغات والانقسامات التاريخية، فعلى سبيل المثال، تُعتبر اليونان "أوروبية" دون أي ارتباط بالشرق؛ كما تُعتبر النصرانية أيضًا دينًا أوروبيًّا على الرغم من خروج المسيح عيسى عليه السلام في الشرق"، على هذا النحو، كان أمين ناقدًا مبكرًا للتفسيرات الثقافية في العلوم الاجتماعية.

يختلف نقد أمين للمركزية الأوروبية عن انتقاد سعيد، الذي كان أكثر تركيزا على كيف أن التصوير الثقافي لغير الأوروبيين عنصريٌّ وضار. في الواقع، يمثل سعيد وأمين من نواحٍ عديدة التناقض الثقافي بين وجهات النظر الماركسيةً ونظريات ما بعد الاستعمار للإمبريالية في العلوم الاجتماعية – الاستشراق من ناحية، والمركزية الأوروبية من ناحية أخرى. كان أمين، الماركسيّ الجديد، أقل اهتمامًا بالمواقف والثقافة، التي كانت تشغل الاهتمام الأكبر لدراسات ما بعد الاستعمار، وأكثر اهتمامًا بالنزعة الأوروبية كمشروعٍ أوروبي قطبيٍّ ومستقطبٍ وأيديولوجيٍّ عزز الإمبريالية وعدم المساواة المنهجية من خلال إضفاء الشرعية على نظامٍ عالميٍّ يُصادر الموارد ويستغل الناس في الجزء الجنوبيّ من العالم. على سبيل المثال، أوضح أمين كيف ساهمت العلوم الاجتماعية الأوروبية المركزية في إضفاء الشرعية على الافتراس غير المقيد لرأس المال، والذي كان له تأثيراتٌ ماديّة حقيقية. في حين أن المواقف والثقافة الصعبة بالنسبة لسعيد قد تكون كافية لتحدي الإمبريالية، فإن معارضة الإمبريالية بالنسبة لأمين تعود دائما إلى مسألة الرأسمالية.

اعتقد أمين أن نقد سعيد للإمبريالية والاستشراق كان عامًّا للغاية ومتجاوزًا للتاريخ، نظرًا لأنه لم يميز بين الرؤى الأوروبية المختلفة للشرق الإسلامي. أجبر هذا التوجه من سعيد أمينَ على التحذير من خطر تطبيق مفهوم المركزية الأوروبية بحرية كاملة. بالنسبة لأمين، كانت المركزية الأوروبية مفهومًا تم تطويره في لحظة تاريخية محددة. كما انتقد سعيد لأنه شجّب فقط التحيز الأوروبي – أو الاستشراق – جون "اقتراح إيجابيٍّ لنظام آخر لتفسير الحقائق التي يجب أخذها في الاعتبار"، هذه هي بالضبط المهمة التي تجلّد أمينٌ لإنفاذها، من خلال الكشف على رؤية أكثر اكتمالًا لتطور الرأسمالي ةبدون تحيزات مركزية أوروبية، يقترح أمين متابع مشروعٍ عالميٍّ خالٍ من الخصوصية الأوروبية، "حداثةٌ ناقدة للحداثة". ادعاءٌ مثل هذا، يمكن أيضًا انتقاده من منظور العلوم الاجتماعية النقدية، نظرًا لأنه من المستحيل على أي نظرية في العلوم الاجتماعية أن تلتقط الواقع بالكامل بطريقةٍ غير منحازة.

كان كتاب "المركزية الأوروبية" لسمير أمين، الذي نُشر في الأصل بالفرنسية في عام 1988، أيضًا ردًّا على انتقادات ما بعد الاستعمار التي رفضت التحليلات الماركسية، بشكل شبه

مسبق، لكونها شكلًا من أشكال المركزية الأوروبية. يتفق أمين على أن جوانب الماركسية كانت بالفعل شكلًا من أشكال المركزية الأوروبية، مثل الافتراضي الغائيّ بأن البلدان النامية هي ببساطة في "مرحلة" مبكرة من التطور الرأسمالي وسوف تلحق، بمرور الوقت، بأوروبا. لكنه قدم أيضًا قضية كيف يمكن للمفاهيم الماركسية والمادية التاريخية أن تقدم انتقادات قوية للنزعة الأوروبية.

إذن، ما هو البديل الذي يقدمه أمين، بعيدًا عن علوم المركزية الأوروبية؟ لقد قدم أمين إطارًا للكشف عن الهياكل غير المتكافئة للاقتصاد العالمي – والتي لا تستطيع النظريات القائمة على المركزية الأوروبية توفيرها.

فيما يلي طريقتان للتفكير في مساهمة أمين في مجال اقتصاديات التنمية، أحدها هو المفاهيم المحددة التي طرحها وكيف تم توسيعُها بطرقٍ مختلفة لتفسير العالم. والآخر هو طريقته في التعامل مع العلوم الاجتماعية، والتي تنطوي على أكبر إمكانية لإعادة هيكلة اقتصاديات التنمية كمجال. فلنبدأ بِمقاربته للاقتصاد السياسي.

يدفعنا مفهوم أمين للاقتصاد السياسي إلى التفكير هيكليًّا، زمانيًّا، سياسيًّا وإبداعيًّا حول المشكلات الاقتصادية العالمية. دعونا نفكر أولا في اهتمامه بالهيكل. في الوقت الذي أصبح فيه جزء كبير من علم الاقتصاد يعتمد على الفردية المنهجية أو القومية المنهجية – المقاربات التي تركز على الفرد أو الأمة باعتبارها أكثر وحدات التحليل صلة – يبدأ أمين بالإصرار على ضرورة المقاربة الهيكلية. يوجه أمين الانتباه إلى الهياكل العالمية التي يقوم عليها نظام الاستغلال الدولي. كان التفكير في بنية الاقتصاد العالمي في الواقع هو ما دفع أمين إلى تقديم مساهمات مهمة في نظرية التبعية، وهي تقلـــيد متمـــحور حول الجنوب يأخذ الاتجاه الاستقطابي للرأسمالية والقيود التي تضعها على عالم ما بعد الاستعمار كنقطة انطلاق لها. استكشف أمين كيف كان التبادل غير المتكافئ – التفاوتات المتأصلة في التجارة الدولية – سمة حاسمة للاقتصاد الرأسمالي العالمي، الذي كان إرثًا استعماريًّا، والذي استمر في وضع البلدان في الجنوب العالمي في وضعٍ غير مؤاتٍ هيكليًّا.

كما أصر أمين على ضرورة التفكير بارتباطٍ وثيق مع الزمن. لقد عرف نفسه دائما على أنَّه جزء من مدرسة المادية التاريخية العالمية، حيث الانتشار التاريخي للرأسمالية العالمية هو المفتاح لفهم الاستقطاب بين المركز والأطراف. كان نهج أمين أيضًا سياسيًّا بشكلٍ أساسي. لم ينكر أبدًا أن هدفه النهائي كان تغيير العالم للأفضل، وهذا ما يميزه عن الاقتصاديين العاملين ضمن التقاليد الأوروبية المركزية في الادعاء بأن العلوم الاجتماعية محايدة وفي معزلٍ عن السياسة.

أخيرًا، في استخدامه للمفاهيم التي تم تطويرها في قلب المركز لفهم العالم من أطرافه، كان أمينٌ مفكرًا مبدعا. لقد عرّف نفسه بأنه "ماركسيٌّ مجدد"، وأكد أنه سوف يبدأ من كارس ماركس، بدلا من الانتهاء عنده. استنادًا على ماركس، يعطي أمين الأولوية للصراع الطبقي والاستغلال والتنمية الرأسمالية غير المتكافئة. وسع أمين هذه المفاهيم لتحليل الإمبريالية والتبادل غير المتكافئ والميول الاستقطابية بين المركز والأطراف.

بالنظر إلى هذا النهج التاريخي للاقتصاد السياسي، كان من المنطقي أن يقوم أمين بتوسيع نظرية ماركس للقيمة لفهم الإمبريالية بشكل أفضل. في كتابه "التراكم على المستوى العالمي" (1974)، أظهر أن الآليات التي من خلالها استمرت القيمة في التدفق من الأطراف

إلى المركز، وإعادة إنتاج التقسيم الدولي للعمل والتوزيع غير المتكافئ جغرافيًا للثروة، أتت من الاستعمار وهياكله. اعتمد أمين على كتاب الاقتصاديين الماركسيين الجدد بول باران وبول سويزي كتاب "رأس المال الاحتكاري" (1966) في تصوره لـ "الريع الإمبريالي". الريع الإمبريالي، عند أمين، مشتق من فائض القيمة الزائدة. بعبارة أخرى، للرأسمالي أن يحصّل دخلًا أفضل إن كان منبع الإنتاج عنده موجودٌ في الأطراف، أي قائم على العمالة الرخيصة مقارنةً بتلك التي في المركز، وإن كانت الوظائف مماثلة. جادل أمين أنه في حين أن العمال ذوي الأجور المنخفضة في الأطراف ليسوا أقل إنتاجية من نظرائهم في المركز، فإن القيمة التي يخلقونها أقل مكافأة – وهذا ما يخلق مثل هذا الريع الإمبريالي. قام آندي هيكينبوتوم وغيره من الباحثين منذ ذلك الحين بتوسيع نطاق رؤية أمين، حيث قاموا بتطبيق المفهوم لإظهار كيف تمكنت الشركات متعددة الجنسيات البريطانية والإسبانية من الاستفادة من طفرة السلع؛ انظر أيضًا كتاب Maria Dyveke Styve المعنون "The Informal Empire of London" (2017)).

شكل الاستعمار اقتصادات دول ما بعد الاستعمار بحيث حدث التراكم بطرق غير متساوية – أو غير متكافئة -. في كتابه "التنمية غير المتكافئة" (1976)، ميز أمين بين نوعين مختلفين من التراكم، أحدهما أطلق عليه "التراكم الذاتي"، والذي حدث في القلب/المركز وعزز إعادة الإنتاج الموسعة لرأس المال. وعلى النقيض من ذلك، اتسمت الأطراف بما أسماه "التراكم غير المقلوب"، وهو نوع لا يفسح المجال لإعادة إنتاج رأس المال. وجادل بأن التنمية غير المتكافئة تطورت تاريخيًا خالقةً هياكل استغلالية، والتي تجلت في الأزمنة المعاصرة على شكل التبادل غير المتكافئ الذي نراه. وقد أدى هذا بدوره إلى استمرار الاستقطاب وزيادة عدم المساواة.

كان "التبادل غير المتكافئ" عند أمين محاولة لشرح عدم معادلة سعر العامل على الصعيد العالمي، حيث يشير سعر العامل إلى مكافأة العمالة أو غيرها من العوامل الأولية غير المنتجة. وهذا يعني أن العمالة والمواد الخام والأرض أرخص في الأطراف. وقد أطلق على التقليل من قيمة العمل في الأطراف اسم "الاستغلال الفائق". بالنسبة لأمين، كان التبادل غير المتكافئ نتيجة لتوسيع رأس المال الاحتكاري إلى الأطراف بحثًا عن أرباح فائقة (أو ريع إمبريالي).

قام أمين بتغيير شروط المناقشات حول التبادل غير المتكافئ. كانت الأرثوذكسية بين الاقتصاديين هي أن العمال في الأطراف هم ببساطة أقل إنتاجية من أولئك الموجودين في المركز. من المهم أن نلاحظ أن فكرة التبادل غير المتكافئ والاستغلال "الفائق" لا تزال محل جدل بين الماركسيين. في Das Kapital، ناقش ماركس عدم جدوى المقارنات بين درجات مختلفة من الاستغلال في الدول المختلفة، والمشاكل المنهجية الهامة التي تنشأ عن ذلك. يجادل العديد من الماركسيين بأن الماركسيين الجدد مثل أمين ركزوا بشكل مفرط على علاقات السوق على حساب استغلال العمالة.

بالإضافة إلى المشاركة في هذه المناقشات النظرية، كان أمين من بين أول من حاول قياس التبادل غير المتكافئ تجريبيًا. وقد سار الكثير على خطاه منذ ذلك الحين، مثل جيسون هيكيل وديلان سوليفان وحذيفة زومكاوالا ، الذين توصل بحثهم في عام 2021 إلى أن الشمال العالمي خصص حوالي 62 تريليون دولار من الجنوب العالمي بين عامي 1960 و 2018. واعتمادا على مجموعة من الطرق المختلفة لحساب التبادل غير المتكافئ، وجدوا أنه، بغض النظر عن المنهجية المتبعة، زادت كثافة الاستغلال وحجم التبادل غير المتكافئ بشكل كبير منذ الثمانينيات والتسعينيات.

كرس أمين أيضًا قدرًا كبيرًا من الوقت للتفكير في طرق لتغيير هذا النظام غير العادل. كان منخرطًا بشكل كبير في القضية، وطور بعض المفاهيم النظرية لإحداث التغيير السياسي، ومن بين أعماله الأكثر شهرة هي فكرته عن "فك الارتباط" – والتي نشر عنها كتابًا. كتاب "فك الارتباط: نحو عالم متعدد المراكز" (1990) يقدم تقييماً للطرق الممكنة للتقدم لدول الأطراف ذات السيادة. في كتابه "فك الارتباط"، يجادل أمين بأن الظروف المحددة التي سمحت بتقدم الرأسمالية في أوروبا الغربية في القرن التاسع عشر لا يمكن إعادة إنتاجها في أي مكان آخر. لذلك، اقترح نموذجًا جديدًا للتصنيع تم تشكيله من خلال تجديد الأشكال غير الرأسمالية للزراعة الفلاحية، والتي كان يعتقد أنها تعني فك الارتباط عن ضرورات الرأسمالية المعولمة.

من المهم التنويه أن "فك الارتباط" غالبًا ما يساء فهمه على نطاق واسع على أنه يعني الاكتفاء الذاتي، أو نظام الاكتفاء الذاتي والتجارة المحدودة، لكن هذا تشويه للمبدأ. إن فك الارتباط لا يتطلب قطع جميع الروابط مع بقية الاقتصاد العالمي، بل يتطلب رفض إخضاع استراتيجيات التنمية الوطنية لمقتضيات العولمة، إنها تهدف إلى تشكيل اقتصاد سياسي يناسب احتياجات الدولة، بدلاً من مجرد مواكبة الاضطرار إلى التكيف مع احتياجات النظام العالمي. لتحقيق هذا الهدف المتمثل في تعزيز السيادة، ستقوم الدولة بتطوير أنظمتها الإنتاجية الخاصة بها وإعطاء الأولوية لاحتياجات الناس بدلاً من من توجيه كامل الجهد والتركيز إلى الاستجابة لمتطلبات رأس المال الدولي.

في مقابلتي معه قبل وفاته، أكد أمين على أهمية الواقع الاقتصادي السياسي المحدد لأي بلد معين لفهم وتحديد مواقع احتمالات فك الارتباط. في ذلك الوقت، وبقدر غريب من الدقة، قدر أمين أنه "إذا تمكنت من الوصول إلى 70 في المائة مـــن فك الارتباط، فستكون قد قمت بعمل عظيم". وأشار إلى أن دولة قوية مستقرة نسبيًا لأسباب تاريخية ولديها قدر معين من القوة العسكرية والاقتصادية سيكون لها نفوذ وقابلية وقدرة أكبر لفك الارتباط. لذلك، في حين أن الصين قد تكون قادرة على تحقيق 70 في المائة من فك الارتباط، فإن دولة صغيرة مثل السنغال ستكافح لتحقيق نفس القدر من الاستقلال.

يستلزم فك الارتباط رفض الدعوات لتكييف مميزات البلد مع أشكال أخرى من أجل تلبية المصالح الأجنبية. هذا، بالطبع، عمل صعب. وأشار أمين إلى أنه سيتطلب دعمًا محليًا قويًا لمثل هذا المشروع الوطني وتعاونًا قويًا بين بلدان الجنوب كبديل للعلاقات الاقتصادية الاستغلالية الجارية بين دول المركز ودول الأطراف. قد تتضمن الجوانب الأخرى لفك الارتباط استثمارات في مشاريع طويلة الأجل، مثل البنية التحتية، بهدف تحسين نوعية المعيشة للناس في البلاد، بدلاً من المشاريع الاستهلاكية قصيرة المدى.

درس العديد من العلماء مؤخرًا مسارات التطور التاريخي فيما يتعلق بمسألة فك الارتباط. على سبيل المثال، في عام 2020، طبق فرانشيسكو ماتشيدا وروبرتو ناداليني هذه المقاربات لمحاولة فهم مسار التنمية في الصين، بينما طبقه فرانسيسكو بيريز في عام 2021 لفهم التنمية الاقتصادية في شرق آسيا. ومع ذلك، مع ازدياد ترابط العالم، فإن احتمالات فك الارتباط تصبح أكثر صعوبة.

نحن الآن في وقت أصبح من المألوف فيه للجامعات في العالم الشمالي أن تعبر عن رغبتها في "إنهاء الاستعمار في الجامعات". بينما يسارع العديد من العلماء إلى كتاب الاستشراق لسعيد لفهم كيفية القيام بذلك، فإن عمل أمين والتزامه بعلم اجتماعي متمركز حول الجنوب قد يقدم نهجًا أكثر راديكالية.

بعد إدوارد سعيد، اقتصر النشاط على عزل "الفكر الاستعماري" عن العلوم الاجتماعية على تحدي الاستعارات العنصرية والتصوير الأوروبي المركزي في المناهج الدراسية وفي الخطاب الأكاديمي. هذا مهم في الوقت الذي أصبحت فيه المناهج الدراسية ضيقة بشكل متزايد، أوروبية المركز مع نقص حاد في التنوع، لا سيما في المجال الاقتصادي. إذن، ما الذي يمكن أن يضيفه منظورٌ أمينيٌّ إلى النقاشات حول إنهاء الاستعمار في الاقتصاد بما يتجاوز المساهمة التي طرحها إدوارد سعيد؟

أولاً، فتح اهتمام أمين بكيفية تشكيل الموروثات الاستعمارية للهياكل الاقتصادية والاجتماعية للاقتصاد العالمي بطرق متنوعة، الباب أمام ثروة من الجهود الدراسية حول الموروثات الاستعمارية والإمبريالية والتبادل غير المتكافئ. من منظور إنهاء استعمار في الجامعات، قد يجلب أمين الحاجة إلى تعزيز التفاهمات المتمحورة حول الجنوب العالمي، فضلاً عن التفاهمات البديلة للرأسمالية. هذا مهم لأن الجهود الدراسية التي تتخذ نهجًا نقديًا للرأسمالية تم تهميشها إلى حد كبير من مناهج الاقتصاد في جميع أنحاء العالم.

عندما ناقش أمين أطروحة الدكتوراة الخاصة به في Science Po في باريس عام 1957، تحصل على الدكتوراه في الاقتصاد من خلال توسيع المفاهيم الماركسية في المؤسسات النخبة. قبل بضع سنوات فقط، في عام 1951، تمت ترقية باران، الاقتصادي الماركسي، إلى أستاذ في جامعة ستانفورد في كاليفورنيا، بعد فترة وجيزة من تقاعد سويزي، وهو اقتصادي ماركسي آخر، من جامعة هارفارد في ماساتشوستس في عام 1947. في تلك اللحظة، كان العلماء الراديكاليون في جميع أنحاء العالم يطرحون تفسيرات جديدة ومنافسة للاتجاهات الاستقطابية للرأسمالية.

كان هناك اهتمام خاص بإعادة تفسير ماركس من منظور عالم ما بعد الاستعمار، من العلماء في الهند إلى البرازيل. كان ذلك أيضًا وقتًا أعطى فيه مؤتمر باندونغ – وهو تجمع في إندونيسيا في عام 1955 لممثلين من 29 دولة آسيوية وأفريقية مستقلة حديثًا لبناء تحالفات حول التنمية الاقتصادية وإنهاء الاستعمار – أعطى التفاؤل لأولئك الذين عارضوا الاستعمار والاستعمار الجديد.

تطورت نقاشات منتصف القرن العشرين حول المركزية الأوروبية من صراعات مادية حقيقية ضد العلاقات الاستعمارية والاستعمارية الجديدة، والتي تتناقض مع مجال الاقتصاد المعاصر، حيث تم اختصار التحليل إلى ما يمكن دراسته في إطار الاقتصاد الكلاسيكي الجديد ومع بعض طرق الاقتصاد القياسي المقبولة. من منظور أمينيّ، فإن إنهاء الاستعمار في الأكاديميا وفي الجامعات سوف يحتاج إلى إفساح المجال لأنواع الدراسات الراديكالية – التي تفحص بشكل نقدي دور النظام الرأسمالي نفسه في إنتاج التفاوتات والظلم العالمي.

ثانيًا، يمكن أن يساعدنا أمين في رؤية الأسس الأيديولوجية للاقتصاد السائد، وكذلك تنظير العلوم الاجتماعية بشكل عام. في هذا، يعطينا نقطة الانطلاق اللازمة لتحدي مجال يظل قائما على المركزية الأوروبية. ثالثًا، قد نتعلم أيضًا دروسًا مهمة من أمين عندما يتعلق الأمر بالاستراتيجية، فهو لم يتعامل كثيرًا مع الجامعات النخبوية العالمية، لقد كان أفريقيًا ومواطنًا من العالم النامي، وركز حياته على بناء المؤسسات السياسية والفكرية في هذا العالم، يختلف هذا مع العديد من المبادرات من الجامعات النخبوية في الغربية التي تحاول دمج وإذابة العلماء من الأطراف في مؤسساتها (التي غالبًا ما تكون أوروبية المركز)، بـــدلاً من دعــم

مؤسسات الجنوب العالمي نظريات المعرفة الخاصة بها.

أخيرًا، لقد ربط أمين عمله دوما بالنضال المادي الحقيقي. لقد كانت الحاجة إلى معارضة العلوم الاجتماعية ذات المركزية الأوروبية مهمة وجوهرية لأنها سوف تكشف عن البعد الاستعماري للنظام الاقتصادي العالمي، وهذا مهم في سياق الدعوات لإنهاء الاستعمار في الأكاديميا وفي الجامعات، تلك الدعوات التي تقوم غالبًا في معزلٍ عن النضال الاجتماعي الأوسع، المتعلق بإنهاء الاستعمار. وبالتالي، فإن العمل الذي قام به أمين هو بمثابة تذكير حاسم بأن الاستعمار كان يستهدف الموارد المادية، وبالتالي، فإن إنهاء الاستعمار لا يمكن تحقيقه من خلال التغييرات في نظرية المعرفة وحدها.

انتهى

ملاحظات

المصادر الأصلية للمقالات المترجمة التي جاءت في هذا العدد هي بهذا الترتيب:

- «هكذا تخنق وسائل التواصل المحتوى الإسلامي»، لموقع Muslimskeptic.com.
- «ونستون تشرشل: الإمبريالي المتوحش»، لمجلة Currentaffairs.org.
- «ما يجب على المسلمين معرفته عن العائلة الملكية البريطانية»، لموقع Muslimskeptic.com.
- «ما وراء المركزية الأوروبية»، لمجلة Aeon.co.

الصورة الرئيسية لهذا العدد بريشة الفنان باتريك هايدزايخ. حقوق الصورة تعود لصاحبها.

WWW.YAKADHAMAGAZINE.COM

مجلة يقظة الإلكترونية. جميع الحقوق محفوظة © 2022